لأنكم أحياء لأننا موتى

رواية

بسمة الخولي



مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:



كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

لأنكم أحياء
لأننا موتى

رواية..

الكاتبة: بسمة الخولي

إهداء..

لمَن أشعل تلك النيران..

ومَن أطفأها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الأول

زفيرٌ شبه بارد أطلقه هواء بداية الليل لينساب عبر المباني المتراصة على جانبي الشارع، عابث بالزينات الورقية المائلة بين هذه النافذة وتلك، ومن داخل المباني المرتفعة اختلطت الأصوات الهانئة وقد أنساها الشبع والاسترخاء حدتها السابقة، لم تنطفئ السماء بَعدُ، بل تأرجحَتْ بين زُرقة النهار وسواد الليل خلف همسات صافية ارتفعت من هذا المسجد أو ذاك تبعتها رائحة مميزة عطرة تسللت بالأجواء.

إنه رمضان، تحديدًا اللحظات القليلة التي تلَتْ وقت الإفطار، العبق الروحاني المُحبَّب بسطَ نوعًا من الهدوء على المنطقة بأكملها، بعد أن انتهت حركة النهار السريعة، وإن لم تتحول بعد لصخب الليل المرح الذي سيستمر إلى الساعات الأولى من الفجر.

كنت أجل هنا، بالمكان ذاته الذي اعتدت الجلوس به كلَّ ليلة أراقب الحركة الدائرة بين الشوارع والتقاطعات، أحيانًا أنهض لتأدية عمل ما، وأحيانًا أبقى مستندًا إلى البوابة الحديدية الصدئة خلف الكرسي الخشبي المتداعي، لم أتخلف يومًا عن المجيء إلى هنا على الرغم من أن جلوسي الصامت لم يكن ذا هدف أو فائدة تُذكر، لكنني بمرور الوقت عهدت ألفة غريبة بيني وبين ذاك الكرسي، تلك البوابة، وهذا المنزل القديم المهجور خلفي، وبدأت أجد فيها من الراحة والسكون ما افتقدته بشقتي الصغيرة بنهاية الشارع.

السماء أصبحت تامة الظلمة الآن، لم ألحظ هذا إلا حينما رفعت رأسي مستندًا إلى جزء بارز من البوابة خلفي، تنهدت بسكون غارق بأفكاري الخاصة، على الرغم من أن الشارع أمامي كان قد بدأ الآن باكتساب شيء من ضوضاء الليل الآتية، ومن بعض المنازل بدأ عددٌ من الأطفال بالخروج حاملين ألعابهم المضيئة ومرحهم اللامتناهي.

بقيتُ على هذا الحال قليلًا ناظرًا إلى السماء ثم خافضًا نظري دون تركيز حتى لمحته من بعيدٍ..

كان طويل القامة، ذا ملابس جيدة إلى حدٍّ ما، متناثر الشعر، يستند إلى أحد أعمده الإنارة يراقب بدوره مجموعة من الأطفال يتناقلون كرة مطاطية بينهم وسط الطريق بحماسٍ بالغٍ.

لم أكن أعرفه.. لم يكن يمثل لي أي شيء، لكنني ما إن رأيته حتى بدأَتْ ذكرى تلك الليلة تعود إلى ذهني مرة أخرى.

وللمرة الأولى منذ زمنٍ بدأت تلك الرجفة بإيجاد طريقها إلى جسدي من جديدٍ..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال لي يومها: «تخاريف العجائز ما هي إلا حديثُ الشباب، لكنَّ فارق السن يا بني هو ما يجعل عقلك يصدق أو يأبى التصديق».

لم يعد عم طه بيننا الآن، لكنني ما زلت أذكر تلك الكلمات كما لو أنه قالها البارحة فقط. بل ما زلت أذكر الرجل العجوز نفسه كما أنني كنت برفقته منذ أيام معدودة مضت.

أتذكر جيدًا جلبابه المهترئ وجلسته الصامتة فوق المقعد ذاته الذي أعتليه الآن، عصاه الغليظة التي ظلت ترتاح بهدوءٍ أسفل قبضته المهتزة تمامًا كما ارتاحت البسمة الدافئة على شفتيه أسفل عينين داكنتين ذواتي نظرة ذكية تحوطهما عشرات وعشرات من الخطوط التي حفرها الزمن بوجهه الذابل.

لا أذكر أنني رأيت هذا الرجل شابًا يومًا، وفي الواقع لا أذكر أنني رأيته بعيدًا عن كرسيه العتيق أمام المبنى القديم بشارعنا من قبل، لم ولا أعلم إن كان حارسَ المبنى أم مجرد رجل عجوز لم يجد له ملاذًا سوى هذا الجانب الهادئ بطرف الشارع، لطالما بدا وكأنه هنا منذ الأبد، أطلقنا عليه «عم طه» بعض المشاغبين اخترعوا تسميات مثل «عم طه حارس بيت العفاريت»، لكن مثل هؤلاء كانوا سرعان ما يجدون من يزجرهم بعنف.

أنا لست أحد هؤلاء الشباب المؤمنين بالخزعبلات، لكن على الرغم من أنني قضيت طفولتي وشبابي بالكامل هنا لا أظن أنني اقتربت يومًا من «عم طه» العجوز - باستثناء تلك الليلة بالطبع - ليس لأنني أكرهه أو أخشاه، أو ما شابه، لكن لم أكن أرتاح كثيرًا لجلوسه الصامت أو لمراقبته إيانا والبسمة الودود تزين ثغره، الرجل كان طيبًا بحق، لكنني كنت أقابل طيبته هذه بنوعٍ من القلق لا الحبور.

هكذا ظل الوضع كما هو، إلى أن أتى اليوم الذي بدأت فيه هرمونات «الغباء» الخاصة بالشباب بالاندفاع بعروقي، أنا رجل، إذًا عليَّ أن أتوقف عن الخوف، عن القلق، عن الحذر، عن الاهتمام، عن العقلانية... إلخ، المنطق ذاته الذي يحيل حياة أي شاب بسني إلى دفعات متتالية من الحوادث فيقضي نهاية الأسبوع إما بالقسم وإما بالمستشفى، أيهما أقرب..

وإن لم تكن نهايتي ذلك اليوم بأحد الأقسام أو بأحد عنابر المستشفى..

بل بجانب عم طه العجوز.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حينما تدفق هواءُ الليل الرطب فوق الأسطح العالية حولي كنت قد غرقت تمامًا في ذكرياتي الخاصة دون أن أرفع عيني عن الحركة الدائرة بالطريق من حولي، راقبت الشاب المستند إلى أبواب أحد المحال لا لغرضٍ مُعينٍ سوى أنه كان يذكرني بنفسي منذ أعوام مضت، كنت مكانه في يوم ما، الوقفة الواثقة ذاتها والنظرات المختلسة نحو الجالس فوق الكرسي، ثم التظاهر باللامبالاة والمضي في شأني الخاص.

فقط في أحد الأيام اختلف الأمر بالنسبة إليَّ، لم أمضِ يومها لشأني، بل توجهت نحو الجهة البعيدة من الطريق، حيث جلس عم طه الذي بدا مُندهشًا قليلًا لمجيئي وإن تتخلَّى عنه ابتسامته المعتادة.

- مساء الخير يا عم طه.

هكذا قلت يومها بمرح مصطنع وأنا أرمق الرجل العجوز الذي رد سلامي قبل أن يشير لي بالجلوس.

لا أذكر أنني توترت بعض الشيء وفكرت بالمضي، لكنني على الرغم من ذلك جلست جواره فوق صف بارز من القرميد بالحائط وأنا أرمق الشارع بدوري محاولًا فتح حوارٍ ما، أي حوار يكسر

الحاجز الجليدي بيننا، لكنني كلما بدأت في التفكير بشيء لأقول وجدته مبتذلًا أو لا داعي له، لم أكن ممن يجيدون فتح الحوارات؛ لذا أغلقت فمي وجلست صامتًا.

كان عم طه مَن بدأ الحديث، ببساطة سألني عن أحوالي فأجبته باقتضاب، أطلق تعليقًا ما لا أذكر عمّا كان؛ فوجدت نفسي أبتسم تلقائيًا وأنا أجيبه، دقائق وعاد الصمت بيننا؛ لذا لم أجد بُدًا من أن أستأذن منه وأمضي، كانت هي المرة الأولى التي أتحدث بها مع عم طه، لم تكن الأخيرة بالطبع.

اليوم التالي كررت زيارتي تلك، لكن هذه المرة استمر حديثنا لعدة دقائق أكثر قبل أن أمضي مجددًا، تلك المرة شعرت كما لو أنه فهمَ توتري بطريقةٍ ما أو فيما كنت أفكر، ولاحظت أنه لم يكن يرغب بالضغط عليَّ للحديث، كان يتركني أتحدث حين أحب وأصمت حين أشاء، بينما ظلت ابتسامته الهادئة تطوق جميع كلماته معي دون أن يشعر بالإهانة لطريقتي في الانصراف فجائيًا أو مرافقته بصمت.

دفعني هذا للعودة له مجددًا وقد بدأ حذري منه يتقهقر ليحل محله الفضول، كالمعتاد جلست جواره بعد تبادل التحيات، لكنني هذه المرة بدأت بسؤاله عن الأحوال، ثم تبادلنا بعض الأحاديث العامة عن أشياء مثل: «بركة الأيام التي قلت وأصبحت تمضي مسرعة» أو «الزمن الذي مضى ولن يعود»، تلك الأحاديث التي يتبادلها الغرباء حين يتوقفون لإلقاء السلام على بعضهم بالطريق، لا رغبة بفتح نقاشٍ حقيقيٍّ، بل هو نوع من صنع الألفة فقط.

بمرور الوقت طال الحديث وطالت فترة جلوسي برفقته؛ إذ لم يُبدِ «عم طه» تأففًا لوجودي أو حتى تعجبًا، كما أنه لم يستفسر ولو لمرة عن السبب الذي دفعني للمرور به بعد كل تلك الأعوام من التجاهل المتعمَّد، لم تتحول أحاديثه يومًا إلى الهراء أو الملل، كان يُفاجئني بقدرته السلسة على جذب أطراف الحوار دون اصطناع أو مبالغة بالكلام، كان طيبًا حقًّا، تلقائيًّا تمامًا، بل إنني حتى وجدت بصحبته الاستمتاع والتجديد ما لم أجده برفقائي من السن ذاتها، خاصةً أنني لم أفارقه يومًا إلا وأحرقني الفضول للعودة له من جديد باليوم التالي، وتدريجيًّا تحولت تعبيراتي المفتعلة دون أن أدري إلى ضحكات من القلب.

أحيانًا كنا نجلس فقط نتحدث ونراقب الطريق، أحيانًا أخرى أجلب أكواب شاي لنا من أحد المقاهي القريبة ثم أعرض عليه مرافقتي للتمشية، لكنه كان يأبى بإصرار، شيئًا فشيئًا زال توجُّسي من «عم طه» تمامًا ليحل محله شعورُ الألفة والاحترام، شعور مَن ينتظر بلهفة زيارة جده العجوز، ذلك الشعور العائلي الذي فقدتُه منذ زمنٍ طَويلٍ.

أين كنت منذ زمن يا عم طه؟! هكذا كنت أفكر كلما رافقته، لكنني للأسف أدركتُ أنه كان هنا طوال الوقت وأن المشكلة كانت مشكلتي أنا، أنا مَن أقنع نفسه بفكرة سيئة أطلقتُها غيبيًّا دون معرفة الرجل.

كان خجلي من نفسي وأُلفتي لعم طه العجوز يزدادان، لكن مشاعر أخرى أيضًا كانت تزداد برفقتهما.

على الرغم من أنني أحجمتُ عن سؤاله في البداية، فإنني بادرته إحدى المرات بالسؤال عن السبب الذي يدفعه للبقاء هنا طوال الوقت، خاصة أنه لا يبدو كحارس للمنزل القديم خلفه.. أين منزله؟ أين عائلته؟ ومِن أين أتى؟

لم يبدُ عليه الانزعاج لفضولي، لكنه أجابني بمرارة ألا عائلة له سوى عصاه وكرسيه الخشبي، هو لا يذكر من أين أتى أو كيف وُجِد هنا، مع مضي الزمن تختلط المواقيت ليصبح من الصعب أن يحدد فعلًا كيف كانت بدايته، أو إذا كانت بداية أصلاً، لم يكن يعرف سوى أنه هنا الآن، حاضره هنا ومستقبله – إن وُجِدَ – على الأرجح سيكون هنا.

لم أسأل مجددًا، لكنني شعرت من طريقته في الحديث أنه يخفي شيئًا ما، ومن تعبيرات وجهه حينها أدركت أن هذا الشيء – أيًّا ما كان – فهو سيئ، لكنني اكتفيت بهذا القدر من المعرفة ودفنت فضولي مع الكثير من الأسئلة داخلي.

لم أسأل مجددًا.. إلى أن أتت تلك الليلة...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إنه البرد، إنه الليل، ما زالت الحركة والأضواء يغمرون الشوارع، أصوات الباعة وأجهزة الإذاعة بالمقاهي تضاربَتْ مع الصيحات المتنقلة بين المارة لتكوِّن مزيجًا غريبًا يصعب فهمه، لكنه صخب بما يكفي لينتزعك من أية محاولة للاسترخاء قد تُقدم على القيام بها.. لهذا السبب بالتحديد كنت أجد سيري نحو الجهة البعيدة من الشارع التي اعتدتُ التوجُّه لها كل ليلة، بطريقي توقفت أكثر من مرة لألقي السلام على أحدهم أو أرد سلامًا آخر، لكنني لم أمكث سوى لحظات برفقة أي منهم، بعدها كنت أعاود السير مرة أخرى وأنا أدندن بشرود غير عابئ بالصخب الدائر حولي.

كنت أعلم أن ليلة أخرى من الأحاديث الهادئة تنتظرني، ليلة أخرى أمارس بها تلك العادة التي أحببتها فاجلس جوار «عم طه» المرحِب مستندًا برأسي إلى الجدار خلفي ناظرًا نحو السماء ونوافذ المباني المغلقة، أحيانًا أراقب بصمتٍ البقايا الظاهرة من نجوم طمسَتْها الإضاءة الساطعة للمدينة، أو قد أعقد ذراعي فوق صدري راسمًا بعقلي قصصًا مُتخيَّلة لما قد يكون دائرًا خلف النوافذ التي لا تُفتَح أبدًا، عادة غريبة بعض الشيء، لكنني أحببتها حقًا، أحببت كيف كنت أحلِّق بعقلي إلى داخل هذه الحيوات التي لا أعيشها خالقًا كل يوم قصة جديدة وصراعًا جديدًا بين سكان تلك الشقق التي لا أرى سوى أضوائها الخافتة.

فهمت لماذا كان طه العجوز يجلس بمكانه هذا كل يوم ينظر للجميع بصمتٍ فقط، وفهمت ما الشعور أن تنزوي بمكانٍ بعيدٍ من حينٍ لآخر لتلعب دورَ مراقب الحياة بدلًا من دور المُشارك بها؛ لذا تلهفت العودة إلى نهاية الشارع هذه المرة، لم أجده.

حدقت بدهشة بالكرسي الخشبي الفارغ، وتلقائيًّا جالت عيناي بجوانب الشارع أمامي، كنت أعرف جيدًا كراهيته العميقة لكل ما قد يجبره على مغادرة مقعده؛ لذا بدأت أشعر بالقلق وأنا أتقدَّم أكثر متجهًا نحو مكان جلوسه المعتاد منتظرًا أن يظهر بين لحظة وأخرى، لكن الرجل لم يظهر، دارت التساؤلات بعقلي وكدت أبتعد، لكنَّ شيئًا ما جذب انتباهي؛ لذا توقفت قليلًا.

على غير العادة كان «عم طه» غير موجود، لكن، وعلى غير العادة أيضًا، كانت البوابة الحديدية الصدئة القابعة خلف كرسيه مفتوحة، لم يكن هذا بالأمر الجليل، لكنه أثار دهشتي، خاصة أنني أعلم

ألا أحد يسكن هذا المنزل منذ زمنٍ، أيكون «عم طه» بالداخل؟ لكن لماذا؟ انا لم أرَه ينهض من موقعه أمام البيت من قبل، ناهيك عن دخوله، ما الذي اختلف؟

لهذا السبب – على الرغم من ترددي – عدلت عن فكرة الذهاب وقد تملَّكَني الفضول..

ودون المزيد من التفكير تقدمت نحو الداخل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني

- عم طه؟

قلتُها بتوتر وأنا أتقدم نحو السلم شبه المظلم تاركًا الطريق المضيء خلفي، الرائحة العطنة للرطوبة والقِدَم لفحت أنفي فتجعدت ملامح وجهي وأنا أتقدَّم أكثر للداخل أحاذر من أن تعلق خيوط العنكبوت المتناثرة بجسدي.

بصعوبة تمكنت من اجتياز الممر الضيق بين سورٍ ما بدا كالشُّرفة والجدار الفاصل بين البيت والمبنى المجاور، كان الممر يتقدَّم للأمام ابتداءً بالبوابة الحديدية وانتهاءً بجدار مُقتَلَع الأحجار تقبع أمامه كومةٌ من القرميد الصغير وقماش قديم لم أتبين ماهيته كثيرًا بالظلام، يساري كان جدار البناية المجاورة بينما إلى يميني كان هناك سور منخفض يحوي سلمًا من درجتين بمنتصفه يقود إلى شرفة ضيقة تحوي بابًا خشبيًا من تلك الأبواب الفارغة القديمة التي تحوي في منتصفها مقبضًا حديديًا مرعبًا وزجاجًا مموهًا يغلِّفه التراب.

كان الباب مفتوحًا بالطبع؛ لذا واصلتُ تقدُّمي وأنا أحاول دفع الخيالات القاتمة عن عقلي، لم أرَ تصميم منزل كهذا منذ أن كنت في السابعة من العمر، حينها كنت أذهب بصحبة والديّ في زيارات لمنزل جدي بمصر القديمة، كان يشبه هذا المكان إلى حدٍّ كبيرٍ؛ لذا لم يكن مستغربًا أن يُشعرني وجودي هنا بالانقباض.

حالما توجهت للداخل تناثرت أفواجٌ من التراب أسفل قدمي فسعلت بحدة، لم يكن الظلام دامسًا بالداخل، بل كان يفعمه ضوءٌ حارٌ آتٍ من مصباح كيروسين قديم فوق منضدة خشبية متهالكة، تحركت من مكاني متأملًا سقف المكان المبالَغ في ارتفاعه، القرميد الذي يلف على الجدران شاحبة اللون، والنافذة نصف الدائرية التي احتلت جانبًا كبيرًا من الجدار جواري عاكسة بألوانها الداكنة الضوء البرتقالي العقيم المميز لمصابيح الكيروسين عامة.

بعد ثوانٍ ارتفع صوت السعال مُقبِلًا من الداخل؛ لذا انتبهت وقد أفلت قلبي إحدى ضرباته..

- عم طه؟ قلتها بحذرٍ وأنا أكمل طريقي نحو ممر جانبي؛ حيث ظننتني سمعت الصوت، مررت بمرآة ملطخة فنظرتُ لأرى انعكاس ملامح وجهي المرتابة أسفل شعري الأسود المُترَب، لكنني سرعان ما أبعدت نظري وقد أرعبني ارتسام الظلال حولي وأكملت طريقي نحو حجرة انعكس من داخلها الضوء البرتقالي الشاحب ذاته..

ما إن وطأت قدمي الحجرة حتى رأيته، ورأيتهم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هناك رأس المائدة الخشبية القديمة، جلس طه العجوز عاقدًا يديه أسفل ذقنه ينظر للخشب المهترئ بصمتٍ، على جانبيه رأيتُ رجلين آخرين متفاوتي الملامح، لكنهما جلسا بالوضعية ذاتها دون أن يبدوا بوجهيهما الداكنين أيَّ تعبيرٍ يدل على أنهما لاحظا وجودي من الأساس، فقط حرك أحدهما يده

أمام مصباح الكيروسين الصغير بمنتصف المائدة وقد بدا عليه الملل، بينما أطلق الآخر سعالًا كالذي سمعته من قبل.

حاول عقلي – محدود الخيال – إيجاد تفسير للمشهد الذي أراه الآن، لكنني لم أحظَ بالوقت الكافي؛ إذ رفع عم طه رأسه ناظرًا نحوي وقد بدا على وجهه الشائب مزيج من التفاجؤ وإن لم أكن مخطئًا الغضب.

نهض الرجل يتثاقل فتراجعت خطوات، لكنه قطع الغرفة متوجهًا نحوي، وأشار إليَّ لاتباعه فلم أتحرك وقد أفقدني المشهد قدرتي على التركيز، لكنه عندما أشار إليَّ مجددًا وقد بدا أكثر جدية اضطررت لانتزاع عينيَّ عن التحديق في الجالسين وتبعته دون فهم.

لم ينطق طه طوال الطريق نحو الخارج، حاولت الحديث، لكنه أشار إليَّ بالصمت وتابع تقدُّمه حتى عبرنا البوابة الحديدية الصغيرة لنصبح بالشارع المُضَاء أخيرًا، أغمضت عينيَّ قليلًا وأنا أحاول استنشاق أكبر قدرٍ ممكنٍ من الهواء النقي، لكنني عندما فتحتهما كان طه يحدِّق نحوي بتعابير لم أرَها تعتلي وجهه من قَبلُ، زالت بسمته القديمة وزال قناع الدهشة الذي ارتداه بالداخل ليحل محله شيءٌ من الذعر.

كدت أتحدث، لكنه سبقني بنبرة حادة:

- اذهب.

لذا صمتُّ وقد عقدت الدهشة لساني، لم أكن قد استعدت قدرتي على الاستيعاب بعدُ؛ لذا تسمَّرت في مواجهة كلماته.. عندها كرَّر بنبرة أعلى:

- اذهب يا محمود..

ظلَّ ينظر إليَّ وقد تجمَّدت ملامح وجهه الشاحب، وأمام إصراره الغريب لم أجد بدًّا من الاستدارة فالذهاب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لو كنت أعلم أن تلك هي المرة الأخيرة التي أرى بها وجه طه..

لو كنت أعرف أن أولاد الحلال سيجدون جسده الراقد فوق التراب أمام المنزل القديم باليوم التالي ما كنت تركته، لكنني لم أكن أعلم، لم تكن لديَّ فكرة.

ذهبت إلى منزلي تلك وعقلي يخلق ألف فكرةٍ وألفَ احتمالٍ، كان كلٌّ منها أسوأ من الآخر، ساورَني الشك في هوية مرافقي طه ابتداءً من سماسرة العقارات، إلى بائعي المخدرات، ثم العفاريت، كَمٌّ هائلٌ من الخيال الخصب وجد طريقَه لينضج بعقلي طوال فترة بقائي في الشارع، ثم بقائي في شقتي، وحتى استلقائي بسريري عاجزًا عن النوم..

بقيتُ على هذا الحال لما بعد منتصف الليل حتى نال مني التعبُ، هكذا غرَقتُ في نوم خاوٍ من الأحلام، لكنني كنت قد قررت التوجه رأسًا إلى عم طه بالصباح، وهذه المرة لن أغادر دونَ الحصول

على إجابات، لكنني حين استيقظت صباح اليوم التالي أدركت أنني لن أحصل على تلك الإجابات، لا الآن، ولا أبدًا.

قيل إنها أزمة حادة تمكنت من قلبه الواهن، قال المارة المعتادون بالشارع إنهم حين أطلقوا عليه السلام لم يرد، كان منكفئ الوجه فوق عصاه دون حراك، ظن البعض أنه نائم، لكن أحدَهم ارتاب في الأمر، فقط عندما اقترب ليضع يده فوق كتف العجوز أدرك الحقيقة.

ارتفع صوت القارئ باعثًا بجسدي المتصلب القشعريرة، بينما عقدت يديَّ فوق ساقي ناظرًا إلى الأرض غارقًا بأفكاري، حولي كان يجلس عددٌ ليس بالكبير من الرجال، أغلبهم من أبناء منطقتنا ممن ألفوا وجود عم طه، والمهم - بشكل عابر - فقدانه، لم يعرف أحد بمن يتصل أو لمن يبلغ خبر موت طه؛ لذا أقيم سُرادق العزاء الذي كنت أجلس به الآن على عجل، وتم إرسال جسد العجوز إلى مقابر الصدقة القريبة من المنطقة.

رجفة عابرة مري بجسدي وأنا أتذكر تعبيرات وجهه الباسمة ثم قسمات الذعر بعينيه البارحة، على الرغم من أني وجدتني أفكر من جديد فيما رأيت داخل المنزل القديم، لم يكن الوقت ملائمًا لمثل هذه الشكوك، لكنني عجزت عن إخراج الموقف من عقلي.

كنت فضوليًّا، ولأنني فضولي ربطت بين ما رأيت وشكوكي القديمة بأن «عم طه» يخفي عني شيئًا ما، لكن الرجل مات الآن، مات ولن أحصل على تفسير لما رأيت.. إلا إذا...

انقطعت أفكاري حين ارتفعت أصوات المقاعد بعد أن انتهى القارئ، كلمات عزاء تناوبت على المرور بين الرجال الحاضرين ونالني نصيب منها، فنهضت بدوري، لكنني بالكاد منتبهًا لما يدور حولي؛ فبداخل عقلي كانت فكرة جديدة قد وُلِدت للتوّ، وليسامحني عم طه على ما سأفعل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

التفتُّ حولي بقلق وأنا أحاول ضبط أنفاسي..

تخطى الوقت منتصف الليل بساعاتٍ، إضاءة الشارع الخافتة انعكست فوق الطريق الفارغ، والمحال المغلقة فنال منِّي الخوف، الآن توقيت مناسب تمامًا ليتم قتلي أو سرقتي أو الأسوأ، أن يجدني شرطي متجول فيظن بي الظنون.

لكنه، كذلك، كان الوقت المناسب تمامًا لاقتحام منزل صغير تدور حوله الشكوك.

اصطكت أسناني وأنا أعبث بالقفل الحديدي الضخم الذي تم تركيبُه مؤخرًا على البوابة الحديدية بعد موت طه، كانت أعصابي متحفزة تمامًا للركض أو الموت بسكتة قلبية إذا ما تنفس أحدٌ جواري حتى؛ لذا فقد وجدت صعوبة شديدة في التركيز في ما أقوم به، دقائق أخرى من التوتر مرت قبل أن يصدر القفل تكة صغيرة معلنًا انفتاحه.

تنهدت براحة ونظرت حولي من جديدٍ قبل أن أقفز داخل الظلام بخطواتٍ عصبية مُغلِقًا البوابة الصغيرة خلفي.

بخفة عاودتَ قطعَ الطريق الضيق ذاته إلى الداخل، الباب كان موصدًا لا مغلقًا؛ لذا عبرته بحذرٍ دون أن أغلقه، أيًا مَن كان مَن أغلق المكان بعد موت طه؛ فقد ترك المصباح مشتعلًا بعد ملئه من جديد بالكيروسين؛ لذا تراقصَتْ الظلال المرتجفة فوق الحوائط حولي.

على الرغم من أن تلك كانت المرة الثانية لي هنا؛ فإنني عجزت عن التخلص من الشعور بالانقباض لدي رؤيتي الغرفة المتسعة القديمة تلك، بل على العكس كان موت طه بالقرب من هنا داعيًا أكبر كي أشعر بالنفور من هذا المكان، وسرعان ما ربط عقلي بين التراب، القدم، رائحة الكيروسين، والشعور المُقبِض بأن الموت حاضر هنا.

اضطربت، لكنني لم أتراجع، بل واصلتُ تقدُّمي إلى الداخل دون أن أعرف ما عليَّ توقُّع رؤيته، حتى وصلت أخيرًا إلى تلك الحجرة التي جلس بها طه الليلة الماضية.

لم أرَ أيَّ شيءٍ..

لا يعني هذا أن الغرفة كانت خاوية، لكنني كنت - حرفيًا - عاجزًا عن رؤية أي شيء بالداخل؛ إذ كان الظلام حالكًا، تراجعت للخلف مبتعدًا إلى الممر شاحب الإضاءة وقد توقفت أنفاسي عن العمل للحظات، نظرت بتردد إلى الفجوة المظلمة عبر الباب الخشبي المهترئ جواري قد أيقظ الظلام بالداخل مخاوفي القديمة، وللمرة الأولى بدأت أشعر بالرعب.

لماذا لم ألاحظ قبلًا صوتَ خشخشات الحشرات والزواحف التي احتلَّت الشقوق القديمة بين الجدران؟ لِم لَم أرَ من قبل ورق الحائط المتآكل أو اللطخات التي لم أميِّز إن كانت طلاء أو شيئًا آخر؟ هل كان امتدادُ الممر إلى الداخل موجودًا حقًّا من قبلُ؟! هل كان مُظلِمًا بهذا الشكل في المرة السابقة؟

بدأت بالتراجع، أجبرتُ نَفسي على ألا أنظر داخل الظلام وتحركت نحو الخلف، بقائي بدائرة الضوء قلَّل من مخاوفي قليلًا، لكنني خفتُ أن أوجِّه ظهري نحو الممر المظلم، وقفت للحظات بجوار المنضدة القديمة أحدق إلى بداية الممر المظلم، وقد انتابني شعورٌ بأن شيئًا ما سيئ سيظهر راكضًا عبر هذا المكان لأجد نفسي ميتًا في لحظات، إثر هذه الفكرة المريعة ارتجف جسدي.

كنت قد قررت ألا أحد هنا، لا يوجد بشَرٌ بالمكان، وقد كنتُ أحمقَ فعلًا حين أتيت بحثًا عن ضيوف عم طه، فيم كنت أفكِّر؟! سينتظرون مجيئي لأكتشف مَن هُم.. هل أنا أحمق إلى هذه الدرجة؟ تنفست بصعوبة وقد قررت الذهاب، لا شيءَ يدفعني للبقاء هنا، التظاهر بالشجاعة شيءٌ وتحوُّل الشجاعة لحماقة شيءٌ آخر، كنت غبيًّا حين فكرت في اقتحام المكان من أجل هواجس فضولية تراودني، وسأكون أكثر غباءً إن قررت البقاء هنا أكثر داخل منزلٍ قديم فارغ الله وحده يعلم ما يحتويه بين جدرانه؛ لذا لملمت شتات نفسي وتوجهت إلى الباب عازمًا على الخروج.

في هذه اللحظة فقط سمعت الهمسات المقبلة من الداخل.

التفتُّ خلفي وقد توقف قلبي عن العمل لحظيًّا وشخصت نظري نحو الممر المظلم، لكنني لم أرَ أحدًا ولم ينقض عليَّ أحد من داخل الظلام كما دار بعقلي حينها، مكثتُ بمكاني عاجزًا عن التحرك لثوانٍ ثم أجبرتُ نفسي على الاقتناع بأنَّ ما سمعته للتوِّ كان وهمًا، كدت أرحل، لكن الصوت الأجش الذي

ارتفع حينها شلني تمامًا عن الحركة أو التفكير، بل إنني انهرت أرضًا حين دوَّى الصوت العميق الذي ألفته مناديًا: «محمود».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث

هذا يكفي، صرخت وقد فقدت قدرتي علي التحكم بأعصابي، صرختُ وقد فقدت قدرتي على التحكم بأعصابي، كنت ألهث بعنفٍ حين فتحتُ الباب مندفعًا نحو الخارج، لكنني ما إن خطوت أولى خطواتي حتى تعثرت متوقفًا وقد رأيت جسدًا مُسربَلًا بالظلام يصعد السلم الأمامي في تثاقل، لم أكن أرى وجهه، لكن المشية المنحنية قليلًا والعكاز الخشبي كانا كفيلين بأن يجعلاني أتراجع للداخل من جديدٍ صافعًا الباب خلفي وقد شعرت بأنني مُحاصَر، التفتُّ وراء كتفي بذُعرٍ ثم عاودت النظر أمامي بذعرٍ أكبر، في ذلك الحين عاد الصوت الذي سمعته سابقًا ينادي: «محمودٌ»، لكن هذه المرة كانت النبرةً أوضح؛ لذا أدركتُ أنه لم يكن مقبلًا من الداخل كما حسبت، بل كان آتيًا من الخارج.

دقات العكاز الخشبي ارتفعَتْ فوق الممر أمام الباب فتراجعت ناظرًا حولي، لم أكن أفكر في المواجهة حينها، بل لم أحاول حتى إيجادَ تفسيرٍ لما يجري؛ لأن جُلَّ ما كان يدور بعقلي هو الهرب، لا أريد أن أرى وَجه هذا القادم، لا أريد أن أتأكد، كان مريبًا بما يكفي، خاصةً أن صوته كان مألوفًا بطريقة لا تتيح مجالًا للشك عن هويته.

طه.. هل كان الصوت المنادي صوت طه؟ كيف ينادي مَن هو ميتٌ؟ لا أعرف، لا أريد أن أعرف، لن يزيدني التفسير إلا ذعرًا على أي حالٍ؛ لذا أردتُ الخروج من هنا وحسب.

- افتح الباب يا محمود..

ارتعدت أوصالي حين أتى الصوت العميق من الجهة الأخرى، تلته نقراتٌ واضحة بالعصا الخشبية على العتبة السفلية للباب، حاولت استيضاح أي شيءٍ عبر الزجاج المموَّه، لكن الضوء الخافت لم يساعد كثيرًا، فالتفتُّ حولي بهستيرية وقد تجمَّعَتْ حبات العرق لتنزلق فوق عينيَّ اللتين تعلقتا بالممر المظلم بنهاية الحجرة للحظات.

لم يكن لديَّ خيار آخر أمام استمرار الأصوات المقبِلة من الخارج، لم أجد بدًّا من حَمل مصباح الكيروسين الصغير من فوق المنضدة والمضي إلى الداخل بخطواتٍ مرتجفة غير عالم حتى إلى أين أذهَبُ، كان أملي الوحيد أن أجد منفذًا للخروج من الجهة الأخرى من المنزل، أو – وهو المستحيل – أن أكتشف أن هذا ما هو إلا كابوس ويمضي.

لكنه للأسف لم يكن كابوسًا.. ولم يمضِ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خفتت الأصوات قليلًا عندما توغلت للداخل أكثر، لا يمكنني أن أكون قد ابتعدت كثيرًا، لكن صوت القادم من الخارج لم يكن يصل لأذني لسببٍ ما، في الواقع لو لم تكن ضربات حذائي واضحة فوق الأرض المتربة لظننتني أُصِبت بالصمم.

أكملت طريقي متوغلًا بين الجدران المكشوفة وأبواب الحجرات المظلمة، كان قلبي ينبض بعنفٍ وأنا أحاول أنٍ أسرع دون أن أجرؤ، نظرت جواري سهوًا و أجفلت حين ظننت شيئًا ما يتحرك، لم يكن سوى ظِلٍ، لكنه كان كفيلًا بإسقاط قلبي حتى قدمي.

تحاشيت النظر خلفي وأنا أسرع الخطى بقدر ما استطعت، لكنني ما نال مني الجذع؛ فأمامي لم يكن هناك سوى مدخل مظلم لحجرة أخرى، بجانبه ممر متسع قليلًا ظننت أنه يؤدي ربما إلى مراحيض أو ما شابه، أنا مُحاصَر هنا.

ارتجَّ المصباح بيدي، حاولتُ التفكير في العودة، لكن ما إن استعدت هيئة الرجل وصوته حتى تلاشت الفكرة من عقلي.

أتى اليأس.. الاستسلام والذعر، كمتلازمة فجائية حين أيقنت أن ما سيحدث لاحقًا سيكون سيئًا، سيكون سيئًا للغاية، خاصة أنني لا أفهَمُ ما الذي يحدث أصلاً، استعدت بذاكرتي مشهدَ طه وهو جالسٌ برفقة الرجلين بإحدى الحجرات، كان طه يخفي عني شيئًا ما، أحسستُ بهذا، لكن مهما اتسع خيالي لم أكن أتوقع ما يحدث لي الآن، لأنه ليس منطقيًّا.

إذًا ماذا عليَّ أن أفعل؟

استدرت على عاقبي ناظرًا لنهاية الممر وقد استندتُ بظهري للحائط ألتمس منه الأمان، يمكنني تجربة العودة وليكن ما يكون، أو يمكنني البحث عن نافذة بإحدى الحجرات والصياح أو القفز عبرها، أسقط إلى أين؟ لا يهم، المهم أن أخرج من هنا، لن أمكث بهذا المكان للأبد.

فضَّلت الخيار الثاني على الأول، ربما لأنني كنت أكثر جبنًا من أن أستدير لمواجهة شيء لا أعرف كنهه، أو ربما لأنني كنت أعقل من استيعاب ما قد يحدث في مواجهة مع من هو ميت أو من أظنه ميتًا أو أيًا ما كان.

لذا أخذت نفسًا عميقًا كي أستجمع ما تبقى لديَّ من إرادة وتقدمت نحو الحجرة، كدت أخطو إلى الداخل بالفعل، لكن الممر الصغير بجانبها لفت انتباهي أكثر، لم يكن يؤدي إلى مراحيض كما ظننت، بل هناك باب فارع شبيه بمدخل المنزل يقبع بنهايته.. كان مخرجًا.

للمرة الأولى اعتراني الأمل وأنا أجد الخطى نحو الباب، خشيت أن يكون مغلقًا، لكنه استجاب بسهولة، في غمرة رعبي كنت قد نسيت أن مثل هذه المنازل القديمة عادة ما تكون مزوَّدة بمدخلين لا مدخل واحد، الآن وقد وجدته تملَّكني شعور بالخلاص، فليذهب عم طه إلى الجحيم هو وألغازه، أنا لن أعود إلى هذا المكان مرة أخرى.

فتحت الباب بحذر ولهفة في الوقت ذاته لأتقدم إلى الخارج، ما رأيته عبر الباب كان مخرجًا بالفعل، لكنه لم يكن كما توقعت مطلقًا.

الباب الخشبي القديم كان يقود إلى «باسطة» درج رخامي متآكل يتعرج وفي كلتا الجهتين نحو الأعلى وإلى الأسفل، كان الظلام الحالك يهب من الدرجات الواقعة تحت مستوى بصري، لكن مصابيح إضاءة شاحبة كانت تتدلى من الأعلى مضيفة نوعًا من الضوء المتعب للأعصاب على الدرجات الأعلى، لم أكن أعرف أنني داخل مبنى من طوابق، كيف فاتني هذا؟

المهم أنني تقدمت إلى الخارج لأميل من فوق دربزين السلم الحديدي الصدئ لأنظر إلى أعلى، كان السلم يمتد مسافة لا بأسَ بها، أحصيت نحو ستة أدوار شاهقة يعتليها سقفٌ باهت اللون يتدلى منه

مصباح واهن.

لم يكن قراري بأي حالٍ؛ فأنا كنت محدود الخيارات، لكنَّ عقلي تردد قليلًا وقد انقبضت معدتي من المشهد، لم يشجعني على الاستمرار إلا رؤيتي للملامح الخارجية لإحدى الشقق بالطابق الذي يعلوني مباشرة، عاد الأمل يتسرب لنفسي من جديدٍ، ماذا لو أن هناك سكانًا؟ يمكنني طلب المساعدة.

هكذا هرعت أتقافز عبر درجات السلم ونقرات حذائي تتعالى بالفراغ الصامت حولي حتى وصلت للشقة المعنية، رأيت ضوءًا بالداخل، وظننت أن هذا من حُسن حظي، لم أفكر حينها بالمنطق، لم أستخدم عقلي في حساب خطواتي، كان الخوف مما تركته خلفي يعميني.

الفتاة الصغيرة بالغابة دخلت إلى منزل الدببة ظنًّا منها أنه آمنٌ، فهل كان هذا هو الحال هنا؟ سواء كنت أتجه نحو الخلاص أو إلى حيث لا يفترض بي أن أكون، قد سبق السيف العذل؛ لأنني فور أن وصلت رفعت يدي كي أطرق الباب، لكنني لم أستغرق وقتًا طويلًا لأدرك أن الباب كان مفتوحًا.

توترت، لكن رغبتي بالفرار تفوقت على ترددي فدفعت الباب بحرصٍ وأنا أتقدم لأنظر إلى الداخل.. عندها رأيتها..

بوهنٍ افترشت الأرضية الرخامية البيضاء متكومةً حول نفسها، تتناثر خصلات شعرها القصير حول وجهها بطريقة تدعو للرثاء، بينما التراب يغطي ملابسها الممزقة، لم يكن وجهها تجاهي؛ لذا لم أتمكن من تحديد إن كانت فاقدة الوعي، أو ميتة، أو أيًا ما كان وضعها؛ لذا اقتربتُ منها بحذرٍ وقلقٍ في الوقت ذاته، تخطيتها لأستدير إلى الجهة الأخرى كي أتمكن من رؤية وجهها، وأجفلتُ عندما رأيت عينيها المفتوحتين من بين خصلات شعرها الداكن.

فكَّرت بالتراجع والخروج، لكنَّ شيئًا ما داخلي حثَّني على الانحناء نحوها، فتحت فمي لأتحدث لكنني أغلقته من جديدٍ دون كلام، لم تتحرك الفتاة أو ترمش بعينيها حتى فظننتها ميتة، مددت يدي بعد تردُّد لألمس كتفها محركًا إياها فصعقتني برودة جسدها وعاد التوجس يتملكني، ما الذي تفعله فتاة ميتة هنا؟

نظرت حولي فلم أرَ شيئًا مميزًا بالمكان، لم تكن شقة على الأرجح، بل غرفة متآكلة الجدران تقبع في نهايتها نافذة صغيرة ذات قضبان حديدية وطلاء داكن مرتفعة قليلًا عن أرضية ملاطية سوداء وبيضاء، كما هي لوحة الشطرنج، جوار النافذة منضدة صغيرة وكرسي مقلوب ثم ممر جانبي يقود إلى بداية جدار مبطن بالرخام المليء بالبقع، أظنه مرحاضًا.

لكن لا تفاصيل أخرى بالمكان، لا شيءَ غريبٌ سوى القدم وطريقة التصميم التي تُشبه حجرات المصحات النفسية تلك، ينقصه فقط فراشٌ بأرجُل حديدية ليصبح عنبرًا بمصحة فعلًا، خاصةً مع وجود تلك الفتاة المكتومة فوق القذرة.

نهضت أرتجف وقد فقدتُ شعور الأمان الذي اكتسبته منذ قليل، كدت أسرع للخروج، لكن وسط الصمت المطبق لمست صوتًا ضعيفًا للغاية يكاد يكون غير ملحوظ، تلقائيًّا نظرت للفتاة من جديد وقد تسمرت شاخص السمع فوصلني تردد الأنفاس الضعيف الصادر مرة أخرى، لم تكن ميتة كما ظننت إذًا، اقتربتُ أكثر فلاحظت بصعوبة أن صدرها كان يعلو ويهبط أسفل ذراعها المنقبضة.

عضضت شفتي وأنا أقبض على كتفها متجاهلًا برودة جسدها لأحركها بضعف، ثم بقوة محاولًا إفاقتها وصوتي يخرج متقطعًا بين الحين والحين قائلاً: «يا.. آنسة» أو «هل أنتِ بخير؟» أو ربما «ماذا بكِ؟»، لم أعد أشعر بالخوف منها، بل بالشفقة والرغبة في المساعدة؛ لذا جثوت قربها أحاول دفعها للنهوض، إلا أنها لم تستجب، لولا أنفاسها لأيقنت أنها ميتة فعلًا، استغرقت بمحاولاتي لدرجة أنني لم ألحظ صوت الأقدام المقبل من خلفي، لَم أنتبه إلا عندما أتى الصوت العميق من وراء كتفي ليقول بوضوحٍ:

- لا تحاول.. لَن تنهض.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وثبتُ مستديرًا للخلف وتوقف قلبي عن النبض للحظاتٍ عندما سمعت الصوت، لكن عندما استدرت تحولت دهشتي اللحظية إلى رجفة؛ فأمام الباب كان يقف شابٌ فارع الطول لم أتبين من ملامحه سوى شعره المشعث؛ لأن الضوء الوحيد بالمكان كان يأتي من خلفه ليلقي بظِلّه على الأرض أمامي، لم يَبْدُ مخيفًا بل بدا عاديًّا جدًّا، ما جعله مخيفًا هو الظروف التي ظهر بها؛ لذا تحركت لأقف مستعدًا لأي تطوراتٍ سيئة للوضع، لكنه لم يتحرك.

ماثلته الوقوف دون حراكٍ لدقيقة ثم خرج صوتي متلعثمًا وأدهشني مدى الضعف الذي كلل نبراتي:

- مَن أنت؟

لم أرَه يبتسم وسط الظلال. لكنتي أظنه فعَل؛ لأن صوته أتى مرتاحًا عندما قال:

- أنا أسكن هنا.

في لحظتها تحولت ملامح الارتياب على وجهي إلى تطلُّع وأنا أتقدم خطوتين لتعلو نبرتي:

- حقًّا.. حمدًا لله.. أنا.. لا أعرف.. هناك شيء بالأسفل و.. صعدت لأحاول الخروج.. أنا...

توقفت عن الحديث لألتقط أنفاسي وقد أدركت كم بدوت يائسًا وغير مفهوم، ثم عاودت الحديث بصوت أكثر هدوءًا:

- أريد أن أخرج.. هل تعرف كيف أخرج من هنا؟

انتظرت إجابته وقد غدا عقلي موزعًا بين أمل في إجابة بالإيجاب ورعب من الإجابة بالنفي، كان قلبي ينبض بعنف وقد تخيلت خروجي من هنا أخيرًا.

لكنه عندما تحدَّث خالف توقعاتي تمامًا؛ حيث قال بصوت خاوٍ من التعبير:

- ولماذا تريد الخروج؟ ما زال الوقت مبكرًا للغاية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- ماذا؟!

قلتها بدهشة مفعمة بالارتياب، قلبت إجابته بعقلي فلم أستنتج منها أيَّ شيءٍ، لكنتي بدأت أشعر بالقلق من جديد وتراجعت قليلاً للخلف، لم أتكلم للحظات، لكنه لم يضف أي توضيح؛ لذا اضطررت للحديث:

- اسمع، لا أفهم ما تقول.. أريد أن أخرج فحسب.. هل تعرف طريق الخروج من هنا؟

هذه المرة اعتدل متوجهًا إلى الداخل فتراجعت أكثر، لكنه وقف جواري ناظرًا إلى الفتاة الملقاة أرضًا وهو يتمتم:

- أنا لا أفهم لمَ ترغب بالخروج!

ألقى كلمته دون أن يرفع عينيه عن الفتاة؛ فحملقت به وقد أفقدتني الدهشة القدرة على التعبير المنطقي، لو لم أكن متأكدًا من أن من يقف جواري الآن هو أملي الوحيد بالهرب لكنت انطلقت راكضًا للخارج، لكن ما كان أمامي خيارٌ، ظللت صامتًا وقد شككت أن عقل الرجل ليس بخيرٍ، لكنني في الوقت ذاته كنت أجد البحث عن طريقة جيدة لاستخراج كلام مفهوم منه بعيدًا عن هذا الهراء.

التفت إليَّ أخيرًا مبتسمًا قليلاً فتبين ملامحه هذه الظلمة، كان يبدو طبيعيًّا تمامًا.. عينان داكنتان، وجه هادئ، وابتسامة ودود، كان من الصعب استيضاح ملامحه أكثر وسط الظلام والضوء الخافق، لكنه لم يَبدُ كالمجانين كما تخيلت بعقلي. فقط كنت أشعر بأن وجهه مألوفٌ.. مألوفٌ بطريقة غريبة.

أبعد عينيه عني مجددًا؛ فقررت أن الطريقة الأفضل لاستخراج المعلومات منه هي مسايرته؛ لذا تظاهرت بالتماسك وأنا أنظر للفتاة الراقدة أرضًا بدوري لأتساءل بهدوءٍ متصطنَع عمَّا بها، أجابني الرجل:

- مصدومة قليلاً.

حرك رأسه باستياء، فتساءلتُ عن السبب فالتفت نحوي ليقول بصوتٍ شابَهُ الحزنُ:

- لم تكن طريقة موتها مريحة بالمرة..

تراجعت للخلف مصدومًا بالكلمة فالتفت إليَّ، رأى ملامح الارتياع بعيني فابتسم بتفهُّم وقال بهدوءٍ:

- دعني أحكي لك حكاية صغيرة...

الطابق الأول..

«وهذا عزيزتي يسمى القدر»

أغمضت سوزان عينيها باسترخاء عندما ضرب رذاذ الماء البارد وجهها من جديد، واتسعت ابتسامتها في مواجهة الرائحة الميزة لأمواج البحر المتلاحقة أسفلها.

إنه الشتاء، وغلاف المساء البارد قد بدأ يزحف بالفعل مغطيًا كل شيء بطبقة من الهدوء والنعاس.. معلنًا قُرب انتهاء الليلة.

على الرغم من أن الساعة قد قاربَتْ منتصف الليل، فإن سوزان بقيَتْ واقفة حيث هي مستندة إلى السور الحجري المرتفع تراقب أمواج البحر المتلاطمة أسفلها.. لطالما أثار مشهد صفحات الماء المتتابعة شيئًا ما في نفسها، مزيجًا من اسوف والافتتان.. شعور لا تستطيع تفسيره بدقة، لكنه جذاب بشكل لا يُقاوَم. كان هذا هو السبب الرئيسي لاستمرارها بالمكوث هناك على الرغم من إدراكها أن الوقت تأخر فعلاً.

بعثر هواء الليل خصلات شعرها الأشقر القصير؛ فمدَّت يدها مبعدة إياه عن وجهها.. وعيناها الزرقاوان ما زالتا تهيمان فوق سطح الماء غير الواضح، بالأسفل عمل الظلام كمرآة ترى بها أحداث يومها.. فها هي ترى وجهها المذعور صباحًا عندما اكتشفت أنها تأخرت عن العمل، إفطار سريع وحمَّام دافئ قبل أن ترتدي معطفًا بُنيًّا طويلاً فوق فستان أسود أنيق مطرز وتسحب حقيبتها مسرعة إلى إحدى عربات الأجرة وهي تكاد تفقد أنفاسها.

يتغير المشهد لنرى مديرها السمين ذا الوجه المحتقن يحاول العثور على الكلمات المناسبة لتوجيهها لها، لكم من مرة اعتذرت لكنه كان مُصرًّا على أنها كابوس حي.. «لا أعلم لمَ تركتك بالوظيفة حتى الآن»!! هكذا قال مرارًا.. لكنها فضَّلت الصمت ولم يجب.

بالطبع هي تعلم أن مثل هؤلاء الحمقى لا يقوون على فصل فتاة جميلة مثلها من العمل، بالتأكيد لا.. فقط محاضرة عديمة الفائدة في الأدب ثم يرسلها إلى مكتبها دون اتخاذ أيِّ إجراء آخر، فقط ليتمكن لاحقًا من المرور أمام المكتب متخذًا عذرًا ما لينظر إليها وهي تعمل.

«أطفال».. هكذا فكَّرت «جميع الرجال أطفال كبار».

عاد الهواء ليبعثر شعرها من جديدٍ بينما كانت تفكر باليوم المُمِل داخل جدران مكتبها الأنيق، لم يكن العمل كثيرًا اليوم؛ لذا ظلَّت تعبَثْ بمحركات البحث - بحاسوبها المحمول- طوال النهار تقريبا..

كم من مرة أغلقَتْ الجهاز لتنهض ناظرة عبر النافذة الزجاجية التي تحتل جدارًا كاملاً بالمكتب، ثم تعود لترد على الهاتف، تخرج عابرة ممرًا من المكاتب البنية المتراصة لتبحث عن شيء ما تأكله بالمطبخ الصغير الملحق..

ثم تعود وقد فقدت شهيتها للطعام.

لم يكن هناك شيء مميز باليوم على الإطلاق، ربما باستثناء شيء واحد أثار انتباهها.

حملتها ذاكرتها من جديد إلى الصباح، الساعة الثانية ظهرًا، وقد نال الإرهاق والملل من الجميع تقريبًا.. خارج حجرة المكتب الخاصة بها علت الأصوات وتخلَّص البعض من الالتزام بأعمالهم لترى هذا وذاك يقطع الممرات بين الحجرات المختلفة ليفعل شيئًا ما يزيل ثقل الإرهاق عن عاتقه.

كانت ترى ظلال هذا كله بزوايا عينيها، بينما تحاول التركيز بإحدى الأوراق المهمة أمامها، وقد عقدت أصابعها حول أحد الأقلام لتبدأ بإثارة نقرات متتابعة فوق المكتب بإهمال.. حتى بدأ شعورٌ غريبٌ بوخزها، شعور من تتم مراقبته.

بالطبع رفعت عينيها نحو الباب متوقعة ألا ترى شيئًا مُهمًّا، لكنها رأته.

أدت المفاجأة بها إلى حركة صغيرة مضطربة لترتطم ذراعها دون عمدٍ بقدح الشاي جوارها فيسقط مقلوبًا..

قفزت مطلقة سبة صغيرة وهي تحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه، لكنها عندما عادت تنظر كان الرجل قد اختفى.

بقيت بمكانها لدقائق محاولة التقرير إذا ما كانت متوهمة أم لا، في البداية قررت أنها لم ترَ ما ظنت أنها رأته، ربما كان أحد العاملين الآخرين مرَّ قُربَ مكتبها وقد توقف للنظر للداخل بفعل الفضول ثم أكمل طريقه، لكنها كانت تعرف بداخلها أن هذا غير صحيح.. نظرات الرجل كانت ثابتة، كما أن العينين الداكنتين، الشعر المتناثر، والملابس المُهمَلة هذه كانت غريبة عليها.. وهي بالتأكيد تعرف جميع زملائها بالعمل..

على كل حال ما كانت هذه إلا أفكارا عابرة؛ لأنها بعد دقيقة أو أقل تناست الأمر وعادت لتنظيف الفوضى التي أحدثَتْها: «سيقتلني المدير»... قالتها لنفسها، لكنها ابتسمت وهي تتخيل ردَّ فعل الرجل، ستصيبه جلطة عاجلاً أم آجلاً.

كان هذا كل شيء..

غاصت ذكريات اليوم أسفل الماء الداكن فاعتدلت سوزان قليلاً محاولة إزالة الخدر من جسدها من جراء الوقت الطويل الذي قضته واقفة بمكانها، لم يفسد اليوم تمامًا.. أجل، على الأقل استطاعت سحب نفسها إلى هنا بعد انتهاء دوام العمل، ولأن الأجواء كانت سهلة تمامًا بهذه الأيام فقد اعتبرت تمكُّنها من القدوم إلى هنا نوعًا من الترويح عن النفس.

بعد هنيهة نظرت حولها منتشلة نفسها من عالم الأفكار، أوه..

الوقت متأخر حقًّا.

نظرت لساعتها، لكنها تذكرت أنها نسيتها بالمنزل في خضم التعجل المحموم هذا الصباح؛ لذا عادت تنظر للشارع حولها.

كانت هناك محال قليلة للغاية ما زالت ساهرة، وحركة المشاة والسيارات قد قلت كثيرًا، فلم يبقَ سوى شارعٍ شبه فضاء ومبتل من جراء مطر سابق هذا اليوم.

استطاع هذا كله إعطاءها فكرةً لا بأس بها عن الوقت؛ فقد كان هذا القطاع من المدينة من القطاعات النادرة التي ينتهي يومها قرب منتصف الليل، ليس هناك نوادٍ ليلية أو محال تظل ساهرة إلى ما أبعد من ذلك، ربما بعض المقاهي للمتشردين أو المتأخرين أو ربما المطرودين من المنزل.. لكن لا شيء آخر.

وبهذا قدرت أن لديها أقل من نصف ساعة للوصول إلى منزلها قبل أن يبدأ الشارع بالامتلاء بمثيري الشغب.. عليها الإسراع من أجل سلامتها، خاصةً أنها ستسير طوال الطريق إلى المنزل.

تبعًا لهذه الفكرة عدلت من وضع حقيبتها البنية الصغيرة فوق كتفها وأعادت تجميع شعرها المتناثر خلف أذنها وبدأت بالمشي.

كغزال رشيق التفتت يمينًا ويسارًا قبل أن تعبر الشارع، أصدر كعب حذائها -ذي الرباط- نقرات خفيفة وهي تعتلي الرصيف المقابل واضعة يديها بجيبي معطفها المغلق.

سارت بضع خطوات أخرى عندما عاودها الشعور ذاته الذي انتابها صباحًا؛ لذا التفتت تلقائيًّا. وكالمرة السابقة لم يخب ظنها.

كان يقف هناك، الرجل ذاته الذي رأته صباحًا بالعمل.. مستندًا إلى أحد أعمدة الإنارة التي ضعف نورها. ويداه معقودتان أمام صدره العريض بينما بخار الماء يتصاعد من شفتيه المزمومتين ليتلاشى بالهواء حوله.

نظراته نحوها لم تكن عشوائية بالمرة. ولهذا لم تستطع إخفاء قلقها.

قابلت عينيه الثاقبتين بنظرة مشوشة قبل أن تبعد نظرها عنه وتعاود المشي وإن أسرعت بخطواتها أكثر.

«هل يتبعني؟» دار القلق بعقلها، لكنها علمت أن ما تفكر به مستحيل، لم تره عندما غادرت صباحًا، ولم تره طوال اليوم حتى أتى إلى هنا: «ماذا؟ هل يتجسد بالهواء؟». قالت لنفسها ثم قررت التغاضي.

في محاولة لإيجاد تفسير منطقي حدَّثت نفسها بأنه ربما عن طريق الصدفة -على الرغم من أن هذا لاحتمال يبدو معدومًا- قد قرَّر المجيء إلى هنا. مجرد شخص عادي صادَف أن رآها صباحًا ليفاجأ برؤيتها من جديد هذا المساء؛ لذا راقبها بفضولٍ.. فكرت بهذا ربما لأنها لم تكن المرة الأولى التي يبدي أحد الشباب فضولاً نحوها.

لكنها بعد قليل قررت التأكد من أن نظريتها هذه صحيحة، كانت قد قطعت مسافةً لا بأس بها عابرة بعض تقاطعات الشوارع بعيدًا عن المكان الذي كان أو كانت تقف به؛ لذا التفتت من جديد.

لم يكن هناك شَكٌّ هذه المرة أنه يتبعها.

على الرغم من أن أنفاسها اضطربت وهي تبعد نطرها عنه مجدة بالسير حتى كادت تتعثر أكثر من مرة، كان عقلها الآن يقدح بقوة، لا يريد خيرًا.. هذا الشخص أيًّا من كان لا يريد خيرًا.

فكرت بالتوجه لمخفر شرطة، لكنها ظنت أن مثل هذه الخطوة قد تحفزه على اتخاذ فعل ما قد تندم عليه لاحقًا؛ لذا كان خيارها الأفضل هو الإسراع أكثر نحو المنزل.

عبرت طريقًا آخر وقد تمسكت بحقيبتها بإحكام، وما إن وصلت إلى الرصيف المقابل حتى رأته ينظر يمينًا ويسارًا قبل أن يعبر الشارع في تباعها.

«لا.. هذا يكفي».. عند هذه اللحظة تخلت عن حذرها وبدأت بالركض.

أين البشر عندما تحتاج إلى أحدهم؟ تسارعت ضربات قلبها إلى حد الجنون وهي تلتفت حولها بحثًا عن أي مكانٍ قد تتمكن من اللجوء إليه، لكنَّ أعمدة الإنارة حولها عكست أضواءها فوق محالٍ مغلقة وواجهات عرض مظلمة بين منازل كثيرة متلاصقة.

لم يكن هناك أحدٌ.. لا أحد يستطيع إنقاذها إذا صرخت أو إذا قرَّر الغريب اتخاذ الخطوة التالية.

نظرت من فوق كتفها من جديدٍ، كان يتبعها وقد ارتسم على وجهه تعبيرٌ غريبٌ.. وكأنه بشكلٍ ما يتوقع حركتها التالية؛ لذا في محاولة غريزية غيرت وجهتها اضطرارًا عبر أحد الأزقة المظلمة بين منزلين ذوي طلاء قديم، لا وقت للعودة للمنزل، لكن من الممكن قطع طريق مختصر إلى المخفر.. لا خيار آخر لدي.

انطلقت كسدادة الزجاجة بين بِرَك ماء صغيرة وعشرات من أكياس القمامة المتناثرة، انطلقت بأسرع ما يكون.. كالقط المذعور تمامًا.

علمت أنها لو أبطأت سيتمكن من اللحاق بها.. الله وحده يعلم ماذا ينوي إذا وضع يده عليها، تناثرت بعقلها مئات الأفكار السوداء، بدأت بالسرقة وانتهت بالقتل، أو ربما أشياء أكثر فظاعة.

على الرغم من علو ضربات حذائها فوق الأرض الصلدة فإنها استطاعت سماع لهاثه خلفها.. كيف؟ ربما جعلها الخوف مرهفة الحواس وربما هي مخيلتها لا أكثر.

انتهى الزقاق بشارع أكثر إنارة، استطاعت رؤية الأضواء من بعيد..

شارعان فقط.. الخلاص على بُعد شارعين فقط..

التفتت خلفها من جديدٍ لتراه يتبعها وهو يحاول التنفس بصعوبة وبعينيه نظرة حيوانية شرسة أثارت الهلع بقلبها.. لم يفقد الأمل ولم يَكِلّ بعد، لكنها تفوقت عليه بالمسافة.

كان وجهها محتقنًا، لكن بصدرها كانت هناك أنفاسٌ بعد؛ لذا واصلت طريقها عالمة أنها ستنجو.. ممارسة الرياضة تأتي بثمارها أخيرًا، ربما الغريب الأحمق من المدخنين كذلك، قد يسقط الآن فاقدًا للوعي وقد تقطعت أنفاسه.. لا تستطيع الاعتماد على هذا، لكنه يعطيها دفعة قوية للاستمرار.

تلاصقت خصلات شعرها بوجهها الذي أصبح مفعمًا بالعَرَق والحرارة فحاولت إبعادها بهستيرية، لكن هذا لم يؤدِّ إلا إلى سقوط حقيبتها أرضًا.. توقفت متراجعة خطوتين، لكنّ عينيها رأتاه وقد اقترب خلفها محدقًا نحوها لا بغضب، لكن بابتسامة متسعة أوقفت عقلها عن التفكير، واصلت الركض بذعر.. لتذهب الحقيبة إلى الجحيم...

أمام عينيها لاحت عربات الشرطة بالصف المنمق أمام المخفر، الكثير من الأصوات تعلو خلف الجدران والنوافذ المضاءة، هناك ضحكات كذلك.. بعض الرجال ذوي المعاطف المميزة يشربون شيئًا ما طلبًا للدفء.. إنها النجاة.. النجاة.. أخيرًا.

عندما عبرت الشارع أخيرًا، لم تكن قد لاحظت أن خطواتها أبطأت، لم تلحظ أنفاسه الشيطانية تلهب عنقها من أسفل بينما امتدت يده نحوها.. يا إلهي لم تستطع ملاحظة إلى أي مدى اقترب منها.

لم تلحَظ هذا كله؛ لأنها باللحظة التي فتحت فمها للصراخ، حدث كل شيء بسرعة خارقة قبل أن تمتلك حتى الوقت الكافي للفهم.. أو للشعور بالأم.

فقط ومضات متلاحقة أمام عينيها.

ضوءٌ مُبهرٌ.. عويل شاحنة.. كعب حذائها ينكسر.. صيحات مذعورة.. الدماء أسفلها.. الماء والطين أمام عينيها.. ووجه الغريب يقف أمامها عاقدًا يديه ناظرًا لها بابتسامة هادئة.. ملامحه تغيرت كثيرًا.. ثم لا شيء...

لا شيء سوى الظلام وفكرة أخرى لمعت بعقلها قبل أن تنطفئ تمامًا:

«وهذا عزيزتي يسمى القدر».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما انتهى الشاب الغريب من رواية قصته كنت أستند إلى سور السلم بيدٍ باردة وقد انعقد لساني، انعكس ضوء الصباح الواهن على وجوهنا؛ حيث وقفنا أمام الباب مباشرة، ساد الصمت التام الآن بعد أن توقف مرافقي عن الحديث.

نظرت إليه بذهولٍ ثم إليها بالداخل ثم عاودت النظر له مرة أخرى، حاولت أن أعقل ما كان يقول، لكنتي فشلت، كونه مجنونًا شيءٌ وكونه رائق البال بما يكفي ليحكي قصصًا وسط ما نحن به كان شيئًا آخر. أدهشتني ملامحُ وجهه التي كانت جادة تمامًا بل ومتألمة أيضًا؛ لذا ما ملَكْتُ إلا أن قلت:

- هذا كل شيء؟

فأومأ إيجابًا ثم قال:

- هذا كل شيء؛ لذا هي هنا في هذا الوضع..

ترددت كلماته في المكان بهدوءٍ. فقلق بعد برهة بصوت شابه التردد: لكن.. لكن!!

عجزت عن إيجاد كلمات مناسبة فتوقفت عن الحديث للحظات ثم خرج صوتي ضعيفًا:

- أنت مجنون؟ الفتاة ما زالت حية. ما الذي تقوله؟!

لم يجب. فاستمر سيل الكلام منّي دون أن أقوى على ضبط نفسي هذه المرة:

- اسمع، تلك قصة جيدة. لكنها محض هراء، هذه الفتاة بالداخل تتنفس.. انظر لها، ربما كانت تعاني صدمة عصبية أو ما شابه. لكنها ليست ميتة.. ما تقوله غير منطقي بالمرة. أنت...

توقفت عن الكلام.. ماذا أقول؟ أأنعته بالغباء؟ أأتناقش معه؟ في الوقت ذاته كنت أفكر، ماذا لو لم يكن ما يقوله هراء؟ أمن المحتمل أن ما يخبرني به هو الحقيقة؟ إن كان الأمر هكذا فهذه الفتاة ليست ميتة فقط، بل ميتة وتتنفس، أنا بمكان يوجد به ميت يتنفس!! بدأت أشعر بالرعب من جديد، لكن لأول مرة أدركت مدى فداحة ما أنا به، ودون أن أشعر كنت أنحني مستندًا إلى ركبتي أحاول التنفس لعدة دقائق قبل أن أرفع وجهي من جديدٍ ناظرًا إليه.

تفاجأتَ عندما رأيته ينظر نحوي، لا أدري لماذا، لكن بدا كأنه غاضب، لو كان ما يقول حقيقة فأنا في وضع سيئ فعلاً، ولو كان مجنونًا حقًّا فأنا على وشك اختبار رد فعل سيئ للغاية، لكنه لم يقدم على أي رد فعل من أي نوع أو حتى تفسير.. بل ظلَّ مكانه للحظاتٍ يرمقني بصمتٍ قبل أن يستدير ويتركني ليصعد إلى الأعلى...

الفصل الرابع

- انتظر!!

صحت به وأنا أحاول اللحاق بخطواته، لا يمكنه أن يتركني هنا ويذهب هكذا فقط!!

- انتظر، أرجوك!!

عاودت الصياح من جديد وأنا أتقدم قاطعًا سلمتين بكل خطوة، وصلت للدور الأعلى، لكنني توقفت عن الركض وأنا أنظر بتعجُّب للرجل الجالس فوق السلالم ينظر إلى الأرض بمللٍ، تفاجأت لوجود شخص آخر بالمكان!!

أمسكت بالسور الحديدي وأنا أرى مرافقي يختفي عن نظري بالأعلى، لاحت منِّي نظرة صغيرة نحو الثقة بجواري، كانت مفتوحة الأبواب كالذي سبقتها، لكن هذه المرة لم يكن هنالك من يتوسد الأرض المتسخة بل كان ساكنها على ما أظن هو الرجل الجالس بنهاية الممر فوق السلالم التي تؤدي إلى الطابق الأعلى.

بحذرٍ تقدمت تجاهه لأراه أفضل وأنا أحبس أنفاسي، لم يبدُ مثل الآخر، بل كان أقصر، ذا شعر بني مُنسَّقٍ إلى الخلف وملابس داكنة تحوي تمزقاتٍ خفيفةً جهة ذراعيه، بدا على وجهه الشرود التام وهو ينحني مستندًا بذراعه إلى ركبتيه المنثنيتين عابثًا بطرف السلم؛ حيث يجلس دون أن ينظر إليَّ حتى، لكنه كان يتحرك على الأقل ليس مثل الفتاة بالدور السفلي.

خشيت أن يكون بمثل جنون السابق، لكنني توجهت إليه على كل حال لأتنحنح قليلاً مستجمعًا ما أرغب بقوله، نظرت خلفي من جديدٍ ثم عاودت النظر إليه وقبل أن أتكلم قال بصوت خاوٍ:

- لا أستطيع مساعدتك.

جاءت كلماته صادمة فتوقفت عن محاولة الحديث وبقيت أحملق نحوه بدهشة فقط، رفع رأسه عن الأرض ناظرًا إليَّ وعلى وجهه ابتسامة مريرة:

- سمعت نقاشكما بالأسفل.. أنا آسف، لا يمكنني المساعدة.

لا أعرف ما التعبير الذي بدا على وجهي حينها، لكنه دفعه ليشير لي بالجلوس بصمت، ترددت دون أن أفلت قبضتي عن السور، لكن الغريب بدا أكثر تعقلاً من السابق، وأنا لم أكن قد خرجت بعد من حالة عدم الفهم التي وقعت بها؛ لذا توجهت لتوسد رخام السلم البارد جواره وأنا أقبض يدي بشدة فوق قدمي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

منذ أن دخلت إلى هذا المكان الغريب لم أحصل ولو لمرة على وقتٍ كافٍ للتفكير أو لتفسير ما حدث، لكنني وقد جلست هنا جوار الرجل الصامت حظيت ببعض دقائق للتفكير أخيرًا.

كان غباء منِّي أن أدخل إلى هنا منذ البداية، عليَّ الاعتراف بهذا، كما عليَّ الاعتراف بأن ما يحدث الآن خارج نطاق قدرتي على التفسير بمراحل، الأمر أصبح لا يقتصر على بحثي عن طريقة للخروج أو شخص غريب يشبه عم طه يطرق الباب بالأسفل، بل تفاقم ليشمل وجود آخرين غيري هنا، بالأدوار العلوية لمنزل لا يحوي أدوارًا علوية أصلاً! ما تفسير هذا؟ الغريب الذي قابلني في البداية قال إنه يسكن هنا، كيف يسكن بمكان مهجور؟ إن كان كلامه صحيحًا فلماذا إذا لم أرَه من قبل؟ لماذا لم أرَ أيًّا منهم من قبل؟ إلا إذا...

انتصب شعر ساعدي بالكامل فجأة حين صدمتني الحقيقة، لم يكذب الشاب عندما قال لي إنه من سكان المكان، رما لم يكذب كذلك حين حكى لي.

قصة الفتاة بالدور الأول، أنا هو مَن كان أحمق جدًّا كي لا يفكر بالاحتمال الوحيد المطروح.

هُم سكان المكان نعم، لكن ليس بالطريقة التي توقعتها، ارتجَّ قلبي وسط ضلوعي وأنا أقاوم الوثب ذعرًا، نظرت إلى الرجل جواري بعينين متسعتين، يبدو حيًّا تمامًا، يبدو طبيعيًّا جدًّا، لكن من قال إنهم لا يبدون بمثل هيئتنا؟

ارتجفتُ مبعدًا نظري عنه وعقلي يقدح كي يجد طريقة للهرب، يمكنني أن أركض، لكن من قال إن هذا لن يثير حفيظتهم؟ يمكنني الصراخ، لكن هذا خيار أحمق، لن يسمعني أحدٌ، علاوة على أنني لا أرغب حتى بتوقُّع ما قد يحدث إن فعلت، هل أهرع إلى الأسفل أم أصعد إلى الأعلى وليكن ما يكون؟ يمكنني الصراخ طلبًا للمساعدة إن وصلت للسطح.

نبضَ رأسي بعنفٍ وتعلقت عيناي بالأرض حتى كادت نظراتي تثقبها، بقيت على هذا الحال حتى شعرت بعينيه تتجهان إليَّ، أجبرتُ نفسي على النظر إليه، كان ينظر إليَّ بحُزنٍ لم أفهمه ثم أتى صوته هامسًا:

- في أي دور سكن؟

انقطعت خيوط أفكاري حين وجَّه سؤاله، وبقيت أنظر له للحظاتٍ دون فَهمٍ، فبدا عليه التفهم لسببٍ ما، ثم قال وهو يعيد نظره للأرض:

- أنا أكره المكان هنا.

كدتُ أصارحه بالشيء ذاته، لكنني لم أجد الشجاعة الكافية بداخلي لأتحدَّث بَعدُ، كان عقلي يصرخ بي أن أنهض، لكنني خفت أن أغضبه لو فعلت؛ لذا حركت رأسي بإيماءة مقتضبة وأنا أعاود التفكير في طريقة للهرب.

- هناك هاتف بشقتي..

قالها بلا مبالاة، فحدقت به وقد نسيت حذري:

- ماذا؟!

حرك رأسه إيجابًا:

- يوجد واحد بالداخل، فكرت في استخدامه من قبل، لكن.. أنا أخشى الدخول.

أنهى جملته برجفة صغيرة وتعلقت عيناه بأبواب المنزل فنظرت بدوري، لم يبدُ شيءٌ مخيفٌ بالداخل باستثناء الظلام، عدت أسأله وقد بدد أملي خوفي من جديدٍ:

- لماذا تخشى الدخول؟!

قابلني بالصمت لوقتٍ ليس بالقصير دون أن يرفع عينيه عن الباب.

ظننت أنني رأيت شفتيه ترتعشان قبل أن جيب بصوتٍ خرج مخنوقًا:

- لأنها بالداخل.

أطبق على شفتيه وأجبر نفسه على النظر للأرض من جديدٍ ولم يتحدث مرة أخرى، رفعت نظري عن الباب بدهشة لأنظر لتعبيراته تلك. هل أجرؤ أن أسأل؟

- مَن بالداخل؟ قلتها بتوتر، لم يجبني للحظات وحرك يده فوق ساقه بتوتر، ثم أخيرًا دون أن ينظر إليَّ قال:

- مي..

الطابق الثاني..

«لديك رسالة جديدة» ..

«أخبرتني جدتي ألا أبكي بالحمَّام، وألا أصرخ بالحمَّام كذلك»..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تكن دموعها تلك من أجل موت جدتها على الإطلاق، ربما عملت الوفاة كالقشة الأخيرة التي أدت لانهيارها، لكنها أبدًا لم تكن السبب الرئيسي.

كان هو السبب الرئيسي.

ازداد اندفاع الماء الدافئ من صنبور حوض الاستحمام، ما أدى إلى انزلاقها أكثر نحو الأسفل. هذا الكم من الأفكار الكئيبة يصعب معه النسيان حقًّا.. لكن من قال إنها كانت تحاول النسيان؟

هي لا تدري لماذا تفكر بمثل هذه الطريقة الآن وقد عاهدَت نفسها من قبل ألا تفعل، لا تدري لماذا تتذكَّر كلَّ لحظاتهما معًا ثم تتذكر كلماته اللامبالية لها في وقتٍ لاحق.. لتعود دموعها للانحدار من جديدٍ.

أخبرها أنه يحبها.. فهل هو كاذب إذًا؟ أخبرها أن وجودها جواره منحه الراحة الغني طالما حلم بها، أخبرها أنه لا يرغب سوى برؤية ابتسامتها العذبة تضيء أيامه، أخبرها أنه يرغب لو توقف الزمن ليظل شعور الدفء يطوقه إلى الأبد.. أخبرها بهذا وأخبرها بالكثير والكثير غيره، ما زالت تتذكر جملته الأخيرة: «أحيانًا نحب من لا يستطيع مبادلتنا الحب، ويحبنا من لا يمكننا أن نحب». هكذا قال

لها عندما سألته لم تغير.. فهل كان ما منحها إياه من قبل مجرد كلمات جوفاء؟ هل كان يستغلها؟ إن كان هذا صحيحًا فلمَ ما زلنا صديقين إذا؟ هكذا فكرت، في الواقع هكذا كانت تفكر طوال الأيام الماضية دون أن تصل إلى تفسيرٍ واحدٍ منطقيٍّ.

بكت كثيرًا دون علمه أو علم أحد، وحاولَتْ أكثر أن تنسى، لكن ذرات الأسى لم تنفك أن تتعلق بعقلها كلما عاودت التذكر.

- مي.. سنخرج الآن.. هل أنت بالداخل؟

أتاها الصوت الحزين لشقيقتها الصغرى من خلف باب الحمَّام المُغلَق فأجابت بالموافقة.. ثم سمعت صوتها وهي تبتعد قائلة:

- حسنًا، أسرعي قليلاً.

آه لو تعلم شقيقتها أن هذه هي المرة الأخيرة التي تسمع صوتها بها..

ربما لكانت تقف جوارها الآن محاولة مواساتها، لكن من قال إنها ترغب بالمواساة؟

مَن قال إنها ترغب بأحضان عائلتها المشفقة عندما تبكي أو تتألم؟ مَن قال إنها ترحب بنزع قناع الصلابة التي أصبحت ماهرة تمامًا في وضعه أمام الآخرين.

من قال إنها راغبة بأي شيءٍ على الإطلاق بعد الآن؟

استسلامها لمشاعرها لم يجلب شيئًا لها سوى الألم، بل وأصبح هو العامل الأساسي لجلوسها الآن داخل الماء الدافئ وقبضتها الصغيرة تطبق بقوة على الشيفرة الحادة، بينما تغلق عينيها باستسلام للمرة الأخيرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما رن الهاتف للمرة الأولى لم يستطع سماعه، لكن عندما عاود صوته الارتفاع بجنبات الحجرة شبه المظلمة وضع ما بيده جانبًا وتوجه إلى الداخل ليجيب.

كان قد فارقَ أصدقاءه للتو بعد رحلة مشتركة استغرقت يومين، لن يتمكن من تكرارها على الأرجح، فقد بدأت الدراسة منذ أكثر من أسبوع وعليه الانتظام بالجامعة من جديدٍ.

هكذا كان رنين الهاتف غريبًا بمثل هذا الوقت من اليوم، ربما لأنه لم يعتد الحصول على مكالمات ليلية إلا من أصدقائه، وهم بالطبع ليسوا بمثل هذه الحميمية ليتصلوا به وقد تركهم لتوه.

لذا عندما أجاب على الهاتف كانت تراوده رغبةٌ مريعة بأن ينتهي ليخلد لنومٍ طويلٍ دون إزعاجٍ، لكن الصوت الذي أتاه من الطرف الآخر أطار الفكرة من عقله على الفور.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- مي.. هل أنت بالداخل؟

- مي.. لم لا تجيبينني؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بقوة غير معتادة ضغط على فرامل السيارة لتصدر صوت احتكاكٍ غير مُحبَّب قبل أن يقف متحاشيًا الاصطدام بالسائق الأحمق أمامه.

كانت أعصابه متوترة بحق، كان حانقًا بحق، وكان في حالة غريبة من عدم الفهم الممزوج بالغضب.

للمرة العاشرة تُصر مي على ترك أحزانها تتفاقم، وبطريقة ما كان يعلم أن له دورًا في هذا؛ لذلك عندما أتاه صوتها الباكي تخبره أنها كانت ستحاول الانتحار.. لم يندهش كثيرًا.

الفتاة ضعيفة، هو يعلم هذا جيدًا.. ربما لأنهما صديقان مقرَّبان، كذلك كان يشعر بشيءٍ من المسئولية تجاهها، لكن هذا كان كل ما يشعر به..

لا يدري لم فسرت تعامله معها بطريقة أخرى، لكنه حاول أن يثبت لها العكس.. هي فقط لا ترغب أن تفهم.

عادت حركة المرور لطبيعتها بعد تغيُّر لون الإشارة أمامه فعاوَد القيادة من جديد وعقله يحاول العمل بطاقة إضافية، كم يتغير كل شيء ما بين لحظة وأخرى.

تذكَّر أنه منذ دقائق فقط كان على وشْكِ الاندساس أسفل الأغطية والحصول على قسط من النوم المريح، فابتسم دون رغبة حقيقية في الابتسام.

«أنا.. آسفة.. لم أكن لأزعجك .. لكن.. لا أستطيع».

صوتها المُختنق بالبكاء حرَّك شيئًا ما بداخله، والآن عندما استعاد كلماتها في عقله تحرك الشيء ذاته مرة أخرى.. عبثًا حاول تهدئتها، حاول أن يفهم، لكنها كانت أكثر انهيارًا مما توقع، أخبرته بين عبراتها أنها ترغب برؤيته الآن، تعجَّب وحاول الاعتراض.. الوقت متأخر.. والداك.. غدًا ربما.. لكنها كانت مُصِرَّة، التقط من كلماتها شيئًا يعنى أن والديها ليسا بالمنزل، وفاة جدتها منذ يومين.. سيبيت الجميع خارجًا أو شيء من هذا القبيل.. لم يرغب بسؤالها بالطبع عن السبب وراء تخلفها عن الذهاب.. ربما لعلمه بمدى حبها لجدتها الفقيدة أو ربما كي لا يزيد حزنها، لم يعلم بالتحديد.

هكذا ولأنه يدرك أنه الوحيد الذي بإمكانه مساعدتها في حالتها تلك طلب منها أن تهدأ وأخبرها أنه سيأتي على الفور، ومن دون تأخير كان يعاود ارتداء ملابسه لينهب الشوارع نهبًا متجهًا إلى الجانب الآخر من المدينة دون أن يعرف حقيقة كيف سيطمئن الفتاة الملتاعة.

جواره أضاء الهاتف مرة أخرى كما أضاء سابقًا بالحجرة..

«لديك رسالة صوتية جديدة»..

لكنه -وببساطة- تجاهله، ربما لأن لديه أشياء أهم يهتم بها، أو ربما لأن مزاجه لم يكن يسمح.. لم يدرِ حقًّا.

بعد نصف ساعة آخر كانت السيارة الفضية الصغيرة تتخذ مكانها أسفل المبنى وترجَّل هو منها ملتقطًا مفاتيحه وهاتفه ليشير للبواب النوبي العجوز بالتحية ويصعد كل سلمتين بخطوة واحدة.

على الرغم من الموقف السيئ الذي هو به الآن لم يتمكن من كبت شعوره بالإحراج، لم يعتد مطلقًا زيارة فتاة بمنزلها ليلاً، فما بالك إن كانت الفتاة هي مي؟ استعاد ما قالته من جديد.. وقف بالدور الخامس باحثًا عن الشقة المطلوبة، الباب الخشبي الداكن.. ها هو، المفتاح أسفل ممسحة الأقدام.. أجل، ها هو.

المفتاح النحاسي الصغير يدور بالقفل لينزلق الباب مفتوحًا، الآن كان بالداخل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«أخبرتنا جدتي ألا نبكي بالحمَّام، وألا نصرخ بالحمَّام كذلك.. لا أدري هل كانت تخاريف شيخوخة، لكن...».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- مي..

صاح بصوتٍ عالٍ قليلاً وهو يتقدم للداخل بضع خطوات باحثًا بعينيه عن أي إشارة تدل على وجود الفتاة هنا.

منزلها كان صغيرًا نسبيًّا عما توقع، لكن على الرغم من ذلك بدا أنيقًا بلون الجدران البني والديكور المنسق بعناية. الإضاءة بالشقة كانت تميل إلى الهدوء كثيرًا، لم يكن هناك صوت بالطبع من أي مكان؛ لذلك توجس أكثر وهو يتحرك يبحث بنظره دون أن يعلم هل عليه التقدم أم البقاء والانتظار.

- مي.. هل أنت هنا؟

عبث بالمفتاح بيديه بشرودٍ وهو ثابت بمكانه، ربما كانت ترتدي ثيابها أو شيئًا من هذا القبيل، لكن على الأقل توقع أن يأتيه صوتها الخافت من إحدى الغرف المغلقة أمامه.

صحيح أنها أخبرته أنه سيجد المفتاح أمام باب المنزل، وصحيح أنها أخبرته أنها ستنتظره بالداخل لأنها لن تقوى على فتح الباب بحالتها تلك. لكنه بشكلٍ ما ظن أنها تبالغ.. فهل كانت مي حقًّا راقدة بغرفتها الآن دون أن تقوى على النهوض لاستقباله؟

هكذا تغلَّب القلق على الإحراج ووجد نفسَهُ يمضي إلى حجرة الفتاة وهو يلقي نظرةً عابرةً نحو باب الشقة، متمنيًا ألا يأتي أحد الآن؛ لأن تفسير وجوده سيكون صعبًا بعض الشيء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«أخبرتنا جدتي ألا نبكي بالحمَّام، وألا نصرخ بالحمَّام كذلك.. لا أدري هل كانت تخاريف شيخوخة. لكنني لا أستطيع منع نفسي من تذكر كلماتها كلما نظرت للجسد المسجى أمامي»..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت حجرة فارغة..

لم يتوقع هذا أو توقعه بشكلٍ ما، وبالتالي بدأ القلق بالعبث بقلبه أكثر، شعور لم يتوقع أن يسيطر عليه بمثل هذه القوة: «هل حقًّا احتجت إلى كارثة حتى تدرك كم هي غالية لديك؟».. هكذا فكر، لكنه حرك

رأسه محاولاً نفض الأفكار السوداء عن عقله.. مي بخير، أو على الأقل ستكون بخير عندما يتحدث معها.

وبهذا الدافع ترك مفاتيحه وهاتفه النقال فوق فراشها المرتب وتوجَّه مباشرة إلى الحمَّام الصغير الملحق بالغرفة.. على الرغم من أنه مرَّ شبح ابتسامة فوق شفتيه المضمومتين وهو يتذكر حديثهما معًا بشأن واقعة الحمَّام الملحَق تلك.

كيف كانت فخورة بأنها استطاعت إقناع والدها بإعادة فتح الحمَّام الصغير الملحق بغرفتها ليكون لها جانب خصوصي بالمنزل، فكرة طفولية للغاية، لكنها كانت سعيدة حقًّا بحصولها على حجرة تخصها وحدها بمنزلهم الصغير.. حتى لو كانت تلك الحجرة مجرد حمام.

لا تفكر بها وكأنها رحلت.. حدث نفسه من جديد وهو يعاود إبعاد الكلمات عن عقله، مد يده نحو مقبض الحمام ذي اللون الفضي ودلف للداخل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- مي، هل أنتِ بالداخل؟ حبيبتي، لم لا تجيبينني؟

حركت المقبض أكثر وقد انتابني القلق على شقيقتي.

- مي.. لا تبكي بالحمَّام.. البكاء بالحمَّام خطأ... أجيبيني فقط.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«أخبرتنا جدتي ألَّا نبكي بالحمَّام، وألَّا نصرخ بالحمَّام كذلك.. لا أدري هل كانت تخاريف شيخوخة، لكنني لا أستطيع منع نفسي من تذكُّر كلماتها كلما نظرت للجسد المسجى أمامي، أنظر لوالدي الصامت وأمي الباكية.. لكنني لا أستطيع البكاء على الرغم من أنني حاولت، لا بد أنني استنفدت جام دموعي بالمنزل تلك الليلة»..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- مي..

صاح وقد تمكَّن منه الذعر عندما وقعت عيناه على المشهد أمامه.

فبداخل حوض الاستحمام ذي اللون الأزرق الشاحب كانت تجلس وقد تكومت حول نفسها وسط نحيب متقطع، الماء يغمر أغلب جسدها الشاحب ليعلو ويتساقط من فوق الحافة غامرًا الأرضية الرخامية اللامعة بالكامل.

وأمام هذا لم يستطع إلا أن ينطلق كالطلقة نحو الفتاة بالحوض. وسط توتره وذعره جلس أرضًا أمام الحوض ممسكًا بكتفيها، الماء البارد -كالجليد- يتسرب إلى ساقيه، لكن هذا لم يكن سبب ارتجافه، حرَّكها برفقٍ ثم بعنفٍ قليلاً وهو يحاول دفعها للنظر إليه، لكنها لم تستجب.. هل كانت صدمة عصبية؟ ظلَّ يردد اسمها، أسئلة ومحاولات منه لإفاقتها مما كانت به، لكنها ظلت متقوقعة حول نفسها ترجف وتبكي فقط.

أخبرها أنها حمقاء، أنها غبية لما تحاول فعله.. لكن الأسلوب العنيف لم يُجدِ؛ فحاول استحضار مشاعرها علَّها تستجيب، حرَّك يده بلطف فوق شعرها المبتل وهو يخبرها كم كان قلقًا، أخبرها كم هي -الحمقاء- غالية لديه.. أخبرها أنه آسفٌ إذ جرحها، آسفٌ إذ جعلها تتألم.. ثم حاول جلب الابتسامة إلى وجهها عندما بدأ بتذكيرها خططهما العبثية في سبيل إقناع والدها بتسليمها هذا المكان ليكون لها: «أتعرفين أنه سيسحبه منك لو رأى ما تفعلينه الآن؟ «.. هكذا قال بمرحٍ لكن لا شيء، لم تتزحزح الفتاة حتى.

عندها بدأ هو نفسه بفقدان أعصابه، التوتر بدأ ينال منه أكثر؛ إذ عاد فجأة للشدة وهو يقول:

- هل ترغبين برؤيتي أتألم وحسب؟ أنتِ تفعلين هذا لإثبات ماذا؟

نهض واقفًا وهو يمد يده إلى داخل الحوض ليسحب السدادة بالأسفل دافعًا الماء إلى الانحسار تدريجيًّا، أغلق الصنبور موقفًا تدفق الماء، ثم التفت نحو منشفة ما ملقاة بإهمال فوق أحد الحوامل الحديدية دون أن يتوقف عن الحديث:

- ظننت أنكِ أقوى من هذا، لكنك تثبتين أني مخطئ.. عذرًا، لكنني لن أتركك تموتين من أجل إثبات وجهة نظر حمقاء لن تنفعك كثيرًا إذا ما كنت ميتة.

هل كان غضبه من أجل إفاقتها أم لأنه كان يشعر بما يقول فعلاً؟ لم يعرف أبدًا.

فقط قبضَ على المنشفة واستدار مرة أخرى لينتفض قلبُه فجأة؛ إذ رآها تنظر إليه وقد انحسر الماء عن ذراعيها الممدودتين فوق ساقيها.

بشكلٍ ما لم يستطع عقله استيعاب ملامح وجهها في تلك اللحظة..

بطريقةٍ ما لم يستطع عقله استيعاب الجرح القطعي البشع ذي الدماء المتجلطة برسغيها..

وبالتأكيد لم يستطع عقله استيعاب الباب المغلق خلفه بينما يهرع إليه وقد انهار تماسكه فجأة..

هذه ليست مي.. هذه ليست مي.. هذه ليست مي.. هذه ليست... صرخاته المذعورة التي شقت عنان المنزل فجأة لم يسمعها الجيران قَطّ.

ضربات قبضته التي أدمت فوق الباب الأبيض لم يرَها أهلُ المنزل قط.

فقط أضاء هاتفه الصغير فوق الفراش بالحجرة..

«لديك رسالة صوتية جديدة».. تلك الرسالة التي لم يرها قَط..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«أخبرتنا جدتي ألا نبكي بالحمَّام، وألا نصرخ بالحمَّام كذلك.. لا أدري هل كانت تخاريف شيخوخة.

لكنني لا أستطيع منع نفسي من تذكُّر كلماتها كلما نظرت للجسد المسجى أمامي، أنظر لوالدي الصامت وأمي الباكية.. لكنني لا أستطيع البكاء على الرغم من أنني حاولت، لا بُدَّ أنني استنفدت جام دموعي بالمنزل تلك الليلة عندما اكتشفت جسد أختي فاقد الروح بين جدران الحمَّام الباردة... أخبرتنا

جدتي ألا نبكي بالحمَّام، وألا نصرخ بالحمَّام كذلك وإلا سيطولنا انتقام سكانه الذين لا نعلمهم، ولا يعلمهم إلا الله.. لكن جدتي... مي لم تَمُت لأنها بكت، بل بسبب مَن بكت من أجله. فعن أي انتقام تحدثت؟»..

أخرجت هاتفي من جيب ردائي الأسود لأنظر إلى الشاشة المظلمة، كنت أتمنى أن يراها للمرة الأخيرة؛ لذا أرسلت رسالة له منذ فترة وأخبرته بما حدث، ترى هل قرر تجاهل رسالتي؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس

أغلق الشاب فاه بعد الانتهاء من رواية قصته وعاد ينظر للأرض وعلى وجهه تبدو أعتى آيات الألم.

لم أجرؤ على التعليق، خاصة أنني أصبحت أعلم أن ما يرويه هو الحقيقة دون زيادة أو نقصان، رفعت عيني عنه لأنظر إلى الباب القابع في الظلال وتزاحمت الخيالات برأسي، هذه المرة كان خوفي موجهًا نحو تلك الشقة لا نحو الجالس جواري، بل لسببٍ معروفٍ بدأت أشعر بالشفقة نحوه. شفقة ممزوجة بالرعب.

بطأت أنفاسي وآلمتني يداي من شدة انقباضهما فوق ساقي فانتبهت أحركهما بهدوءٍ وأنا أعاود اختلاس النظر جهة الرجل جواري، لا يبدو بخير أبدًا.

ضحكت بداخلي لتلك الخاطرة، لكنها كانت ضحكة كئيبة، مُحدِّثي ميت، لكنتي قلِقٌ؛ لأنه لا يبدو بخير، ارتجفت قليلاً حين فكرت في أن مشاعري تلك تعني أنني بدأت أستسلم للأمر الواقع. لكنني بشَرٌ على الرغم من كل شيء، وعلى الرغم من الظروف، أفكاري لا يدَ لي بها.

كنت غارقًا في التفكير حين تحرك مرافقي لينتصب واقفًا، أجفلت وقد عدتُ لانتباهي، حيث كان الرجل يهبط السلمتين أمامنا دون أن يتراجع أو يُبدي أيَّ تعبيرٍ.

- ماذا تفعل؟!

صحت باهتياج وأنا أقفز لأقف بدوري وقد أدركت إلى أين يتجه، ما الذي يحدث؟ هرعت خلفه لكنني لم أجرؤ على لمسه، كنت أخشى بداخلي أن ينتقل موته لي إن لمسته، فكرة طفولية، لكنها دفعتني كي أبقى على مسافة مأمونة منه وأنا أصيح من جديدٍ:

- ماذا تفعل؟! انتظر يا... انتظر، لا تدخل هناك!!

جاء صياحي غير متشابك وأنا أراه يَعبُر الباب المفتوح ليغيب عن نظري وسط الظلام دون أن يلتفت إليَّ، كان يبدو مُسيَّرًا أو آليًّا، لم يجبني ولم أهرع خلفه، بل وقفت حيث أنا أحدق بالنقطة حيث اختفى للحظات وساقاي ترتجان تحتي.

مرت دقائق دون أن يأتي أي صوت من الداخل؛ لذا كدت أتقدم، خيم الصمت لدقيقة أخرى ثم دون إنذار هدر صراخٌ جمد الدم بعروقي...

وثبتُ للخلف وسط سيلٍ من الصرخات رافقَهُ صوتٌ مُقزِّزٌ لارتطام سائل بالأرض، حشرجات ثم صرخات من جديد، لا أحتاج لخيال كبير كي أدرك ما يحدث بالداخل هذه اللحظات.

- ابتعد من هناك.

انطلق الصَّوتُ الأنثوي من أعلى الدَّرَج، في الواقع لم أحتَج لهذا التحذير؛ لأنني كنت أقفز إلى الخلف بالفعل مبتعدًا كيف أمكن عن الباب وأنا ألهث محاولاً التقاط أنفاسي، لكن الكيفية التي أتى بها الصوت فجأة دفعتني للالتفات ففقدت توازني وكدت أسقط لولا تعلُّقي بسور السلم الصدئ.

الصوت كان صادرًا من فتاة على قدرٍ من الجمال على الرغم من شحوبها الشديد، كانت تعلوني بعددٍ من الدرجات ويدها الصغيرة تقبض على سورِ السلم بدورها، بينما يدها الأخرى منقبضة فوق صدر قميصها الخفيف ذي اللون الفاتح.

وجهها لم يعكس أي أمارة للفزع، بل بدا عليه القلق أكثر وهي ترمقني أنا لا الباب؛ حيث ما زال الصراخ يعلو، جذب مظهرها انتباهي، واحدة أخرى منهم على الأرجح، لكنها كانت تبدو أقرب للوهن منها إلى الرعب؛ لذا هرعت أصعد السلالم وأنا أحاول ألا أنظر خلفي. فاستدارت هي أيضًا لتسبقني نحو الأعلى.

ما إن وصلت إلى الطابق التالي حتى انهرت أرضًا أقبض على شفتي بشدة وعصارتي المعدية تتسابق نحو حلقي، غامت الرؤية أمام عيني لثوانٍ وقد رسم عقلي صورًا مريعة لما يحدث بالأسفل، لكنني ببطءٍ بدأتُ أستعيد قُدرتي على التنفس فرفعت رأسي لأجدها تقف أمامي كما هي تنظر إليَّ بتوتر.

- هل أنت بخير؟

كانت أول مَن يسألني هذا السؤال في هذه الليلة المشئومة، فحركت رأسي بالنفي، دفعها هذا للاقتراب مني، لم أرَها لأنني عاودت خفض رأسي حتى يزول الدوار، لكنني سمعت خطوات حذائها فوق الأرض ثم شعرت بها تنحني أمامي لكن لم أشعر بيدها إلا بعد أن قبضت على ذراعي فانتفضت.

سحبت يدها بخوف وهي تبتعد قليلاً عني مكتفية بمراقبتي فقط، كنت غارقًا بالدوار، لكن شيئًا ما بلمستها نبهني، لم تكن يدها باردة كما كانت الفتاة بالأسفل لكنها كانت دافئة كقبضة طفل، رنوت إلى ملامح وجهها القلقة بتفاجؤ، هل يمكن أن تكون حية؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ساعد إغماض عيني وبرودة الجدار المتسللة عبر ملابسي في تهدئة معدتي كثيرًا، خاصة أن الصرخات المقبلة من الأسفل توقفت، كنت أفتح عيني من الحين للآخر لأنظر جهة الفتاة، لكنني كنت أعاود إغلاقهما من جديد، لا فكرة لدي لماذا لم أكن أخدشها مثل البقية، لكن يدها الدافئة أعطتني مساحة من الأمان أتشبث بها حتى لو كانت زائفة، ثم إن ذعري مما حدث للتو بث فيَّ نوعًا من التراخي شل قدرتي على الحكم على الأمور.

- هل تسكنين هنا؟

جاء صوتي واهنًا أكثر مما توقعت وفتحت عيني دون أن أنهض لأنظر إليها، حركت رأسها نفيًا وهي تعبث بسلسلة صغيرة حول عنقها ناظرة لباب الشقة أمامها، لم أكلف نفسي العناء لأنظر بدوري وقد خشيت مما يمكن أن أراه هذه المرة، لكن إجابتها دفعتني للاعتدال بأمل.

- هل أنت بخير الآن؟

قالتها بنعومة فحركت رأسي إيجابًا وأنا أجبر عقلي ألا يعود ليفكر فيما حدث مرة أخرى، وكأنها قرأت أفكاري.. قالت بهدوءٍ:

- لم يكن عليك البقاء هناك هكذا.

حاولت النهوض وأنا أجيبها:

- كيف كان لي أن أتوقع ما فعله؟

ابتسمت بكآبة وهي تنظر للشقة أمامها للتو:

- لأن هذا قدره، هو يفعل الشيء الوحيد الذي بإمكانه فعله.. ماذا ظننت؟

شعرت بمعدتي تقرقر من جديدٍ؛ ففضلت ألا أفكر مرة أخرى في هذا الموضوع، عوضًا عن ذلك التفت أنظر إلى الباب شِبه المفتوح للمرة الأولى، على عكس سابقيها كانت الشقة مضاءة، التصميم ذاته الأشبه بحجرات المصحات، لكن هذه المرة كان بإمكاني رؤية فتاتين على قدرٍ من الجمال إحداهما تجلس بالزاوية والأخرى تقف جوارها وهي تبكي، التفتُّ إلى مرافقتي متسائلاً؛ فسمحت لنفسها بالابتسام من جديدٍ وهي تقول بهدوءٍ:

- لا تأخذك شفقة بهما.. فالموت يأتي -أحيانًا- لمن يستحق.

الطابق الثالث..

«الموت أو شيء آخر»..

ها قد ضرب البرق مجددًا..

اللسان الأزرق الكهربي يشق عنان السماء المظلمة من جديدٍ فوق الطريق المبتل.. لا بُدَّ أن الجو مريعٌ بالخارج، هكذا فكرت سارة وهي تحرك قبضتها فوق عجلة القيادة في محاولة عسيرة للبقاء مستيقظة، ولم تكن القيادة لفترة طويلة سهلة بأي حال.

جوارها بالمقعد المبطن انكمشت ليلى حول نفسها وهي تسند رأسها للخلف، ناظرة عبر الزجاج إلى قطرات المطر المتطايرة حول سيارتهم الحمراء الصغيرة، لم تكن ممن يفضلون السفر ليلاً، لولا أن اضطرتها الظروف لذلك.

تنهدت وهي تفكر في المشاحنة التي كانت ستخوضها مع صديقتها لو كانت في ظروف أخرى، بالتأكيد، مشروع السفر ليلاً هذا كان ليُقَابَل بالرفض.. لكن الآن، الآن عليها أن تجلس صامتة وتدعو فقط أن تنتهي الرحلة على خيرٍ.

من جديدٍ دوى الرعد بالسماء. لمحته هذه المرة واضحًا تمامًا وكأنه يسقط فوق رءوسهم، تحركت عيناها فوق المرة الجانبية جوار نافذتها لترى انعكاس جودي النائمة بالمقعد أسلفي، على الرغم من أنها ابتسمت ابتسامة عابرة وهي تتخيل رد فعل صديقتها لو كانت مستيقظة الآن.

مرت لحظات قليلة وهي شاردة في أفكارها الخاصة قبل أن تعود لتسند رأسها للخلف مختلسة نظرات عابرة نحو سارة، النظرات التي شعرت بها سارة بعد فترة ليأتي صوتها من دون أن ترفع عينها عن الطريق:

- ما الخطب؟

- لا شيء.

قالتها ليلى وهي تعاود النظر للخارج من جديد. ولم تعلق صديقتها وإن امتدت يدها نحو مشغِّل الأسطوانات بالسيارة ليبدأ صوت الأغنية الهادئة بالارتفاع تدريجيًّا. عدلت من وضع الصوت كي يصبح مناسبًا ثم عادت للتركيز.

جوارها تكاثفت أنفاسُ ليلى صانعة طبقة ضبابية شفافة فوق الزجاج وهي تدندن بشرودٍ مع ألحان «أصغي إلى المطر» المنبعثة من الجهاز الصغير بالسيارة، استمرت تدندن للحظاتٍ وهي تختلس نظرةً أخرى تجاه سارة التي كانت تتحرك قليلاً في محاولة لإزالة الخدر بجسدها. ومن جديدٍ يرتفع الدوي بالخارج بين ظلال الأشجار والأعمدة على جانبي الطريق.

ظلَّ الجمع صامتًا. ربما حتى تلك اللحظة التي تململت بها جودي بمقعدها لتعتدل جالسة وهي تفتح عينيها بهدوءٍ، ربما في اللحظة ذاتها تقريبًا التي ضربت بها الصاعقة السيارة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انتفضت سارة وأنفاسها تعلو فجائيًّا إثر عواء الهاتف بالدور السفلي لمنزلها الذي أخرجها من حالة الشرود التي كانت بها وسرعان ما بدأت ذكرى الحادث تتبدد لتبدأ ملامح غرفتها المنمقة بالوضوح من جديدٍ. نهضت مسرعة، لكن ذلك لم يساعد إلا في تدافُع النقاط المضيئة أمام عينيها فترنحت ثم عادت تجلس وقد تنهدت بعمقٍ وهي تفرك عينيها بسبابتها، بينما صوتُ الهاتف لم يتوقف بَعدُ.

من جديدٍ عادت تقف، ثم توجَّهَت بهدوء إلى الخارج، كان الهاتف قد توقف بالفعل عن الرنين عندما هبطت عبر السلالم الرخامية إلى الدور السفلي، لكنها عوضًا عن العودة إلى الأعلى أخذت طريقها يسارًا إلى المطبخ المُلحَق لتمتد يدها نحو المبرد – جوار النافذة الدائرية الصغيرة – لم تكن تدري عمَّا تبحث؛ فعقلها ما زال هائمًا في مكانٍ ما بين الواقع وذكريات اليقظة تلك.. لكنَّ عينيها تعلقتا بشيءٍ ما صغير يقع فوق الرف العلوي داخل المبرد.. ارتجفت قليلاً وعاودت إغلاق الباب وقد تملكتها قشعريرة مفاجئة، لكن رنين الهاتف عاد يعلو من جديد دافعًا إياها للذهاب إلى البهو، وما إن رفعت سماعة الهاتف حتى أتاها صوتُ جودي المبحوح:

- أنا في الطريق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أغلقت جودي هاتفها النقال وأعادته إلى الحقيبة، ألقت نظرة صغيرة إلى الطريق المكسو بالتراب خارج السيارة الأجرة ثم عادت تنظر لحقيبتها فوق قدميها بشرودٍ.

- هل أنت بخير يا آنسة؟

أتاها صوت السائق فرفعت عينيها ناظرة إلى المرآة الأمامية وتصنعت ابتسامة صغيرة.

بقي الرجل ينظر لها فعادت تنظر للخارج وهي تشعر بحرارة وجنتها اليمنى من جديدٍ.

تلقائيًّا رفعت يدها تلمس أثر المصعة المتوهج وقد تجمعت دموع دقيقة بعينيها البنيتين.

بشكل ما داخل نفسها ارتبطت رائحة المرض برائحة مطهرات أرضيات المستشفيات لتكون هذا المزيج التعس الذي كانت تكرهه بشدة.. ولأنه علق بملابسها على الرغم من أن عقلها حملها إلى طرقات المستشفى الرخامية، حيث كانت منذ دقائق.

«أنتم قتلتم ابنتي.. أيتها الحقيرة».. صرخت بها مسز «كروفر» -والدة ليلى- وعيناها ذواتا اللون الأخضر تتوهجان غضبًا وحزنًا.. ثم هوت يدها ذات الأساور لتصفع جودي بكراهية.

لم تعترض جودي.. لم تقوَ على الرد، ولم تبكِ.. فقط أطلت عبر النافدة الزجاجية إلى فراش ليلى النائمة ثم التفتت لتقطع الممر مبتعدةً وشعرها الأحمر الداكن يلتصق بجبهتها معترضًا.

من خلفها علا نشيج الأم المكلومة وقد عادت إلى الداخل.. إلى ابنتها التي تراصت حولها أجهزة موصولةٍ بعشرات الأسلاك والأنابيب الرفيعة التي كانت تراقب نشاطات دماغ الفتاة، الشيء الوحيد الذي ظلَّ يعمل حتى الآن داخل جسدها الواهن.

ليلى الميتة إكلينيكيا..

هكذا فكَّرَت جودي، ومن دون أن تشعر تسللت دموعها الحارة تبلل وجنتها، لفترة طويلة لامت نفسها على ما حدثَ لصديقتها، لكن كيف كان لها أن تتنبأ بما سيحدث؟

لو كان بيدها إعادة الزمن ما كانت وضعت ليلى في مثل هذا الموقف..

أبدًا.

من المقعد الأمامي للسيارة الأجرة ارتفعت صرخاتُ بوق السيارة، مما دفع جودي لمعاودة النظر للداخل تلقائيًّا وهي ما زالت في حالة من الوهن والشرود.

كم مضى من الوقت؟ شهر؟ شهران؟

إذًا لماذا تعاودها الذكرى بمثل هذا الإلحاح؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صفعت ليلى الباب الخلفي للسيارة وهي تنضم للآخرين أمام مقدمة السيارة المحطمة إثر الاصطدام:

- هل أصابتنا؟

حركت سارة رأسها نفيًا وهي لا تزال ترتجف انفعالاً:

- أصابت الطريق.. أمامنا مباشرة.

نظرت جودي إلى الأثر الذي خلفته الصاعقة وهي تحاول استعادة هدوئها:

- كان ذلك وشيكًا.

لم تتحدث أيٌّ من الفتاتين وإن أدركتا بعمقٍ أن المأزق لن يتعلق بمقدمة سيارة مهشمة وحسب.

عادت سارة تستند إلى السيارة ناظرةَ للطريق المبتل إثر توقف المطر، وبعد لحظة همست:

- والعمل الآن؟

لم يجبها أحدٌ، لكن جودي تحركت إلى الباب الخلفي للسيارة مخرجة حقائبهن قبل أن تتقدم قليلاً لتقترب من وسط الطريق قائلة:

- نحصل على توصيلة بالطبع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رن جرس الباب في هدوء عقبه تدافع بعض الطيور البيضاء من إحدى الأشجار العالية بحديقة سارة الفخمة.

نظرت جودي حولها وهي تعدل من وضع حقيبتها فوق كتفها مبعدة خصلات شعرها للخلف بيدها الأخرى.

على انعكاس الزجاج الداكن أمامها تأكدت من أن مسحوق التجميل يغطي أثرَ الصفعة تمامًا؛ فعلى الرغم من أن سارة تعلم أن جودي قد تمر لزيارة ليلى قبل أن تأتي إليها، فإن جودي بالتأكيد لم تكن ترغب بأن تُلِم سارة بتفاصيل هذا اللقاء.

ما هي إلا دقيقة أخرى حتى انفتح الباب كاشفًا عن الوجه متصنع الابتسام، وأتى صوت سارة الناعم:

- جودي.. تفضلي.

عبرت جودي إلى الداخل متفادية العناق والقبلات التقليدية بين الأصدقاء ووضعت حقيبتها فوق الحامل البني الأنيق جوار الباب بصمتٍ. أغلقت سارة الباب وأشارت لصديقتها نحو أحد المقاعد بالبهو. ثم اعتذرت منها طالبة الانتظار للحظات ريثما تنتهي من مكالمة هاتفية ما.

حرَّكت جودي رأسها إيجابًا واختفت صديقتها بإحدى الزوايا تاركة إياها تتحرك بالمنزل الذي كانت تحفظه عن ظهر قلب.

بالتأكيد هي لن تنسى هذا الركن، حيث وضعتا أول شاشة عرض ضخمة اشترتاها معًا، وبالطبع هذا الممر المفروش بالسجاد التي انسكب فوقه أحد أكواب العصير يومًا قبل أن تنفجر الفتيات بالضحك على ردِّ فعل والدة سارة ما إن تعود من سفرها الطويل بالخارج.

وبينما تقدمت جودي أكثر تنكرت عشرات -بل وربما مئات- التفاصيل الصغيرة الأخرى التي حملها هذا المنزل لهن معًا.

ضحكات وحكايات واعترافات.. ألعاب وحفلات، وربما القليل من الدراسة كذلك. هذا المنزل يحمل ذكرياتي أكثر مما قد يحمله منزلي الخاص.

هكذا لم تجد بدًّا من الابتسام. لكن بسمتها الصغيرة سرعان ما تحولت لدموع مكتومة وهي تعاود التذكر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- هل ترغبون بتوصيلة؟

قالتها السيدة ذات الخصلات الرمادية وهي تُغلِق باب سيارتها الزرقاء تاركة إياها بإهمالٍ وسط الطريق وقد توجَّهَت نحو الفتيات.

كانت تلك هي السيارة الوحيدة التي توقفت بعد ساعة كاملة من المعاناة وسط البرد وظلام الطريق، الحظ تخلى عنّا بشكل مريع الليلة.. هكذا فكرت إحدى الفتيات.

نظرت لها ليلى بشكٍّ، لكنها قالت بلباقة:

- نرغب بمكالمة هاتف فقط سيدتي.. لو لم تمانعي بالطبع.

حركت السيدة يدها المليئة بالأساور بإهمالٍ:

الهاتف في سيارتي.. لا مانع لدي بالطبع.. لكن.. أوه هذا يبدو مريعًا..

قالتها وهي تنحني قليلاً نحو مقدمة السيارة المدمرة تمامًا فنظرت الفتيات الثلاث بعضهن لبعض في نوعٍ من الفهم الصامت، هذه السيدة بشكلٍ ما تتخذ شخصية امرأة المنزل المدللة العانس التي أغرقت نفسها بعشرات القطط والمجوهرات في محاولة بائسة لإقناع نفسها بأنها سعيدة.. سيارتها الفخمة رجحت النظرية ونظراتها الخاملة أكدتها.

حركت المرأة يدها أمام مصباح السيارة وهي تنحني دون هدفٍ واضحٍ؛ فقررت جودي قطع هذا اللقاء العجيب بقولها:

- شكرًا بالتأكيد، لكن مدام.. هل تمانعين؟

نظرت لها المرأة فتابعت:

- الهاتف.. لو سمحت.

- أووه.. نعم، نعم.

قالتها السيدة بدلال وهي تتحرك نحو سيارتها لتفتح الباب ويختفي رأسها بالداخل قليلاً، استغلت سارة هذا الوقت المستقطع لتقترب من الأخريَين هامسة:

- تذكِّرني بعمتي.

كتمت كُلٌّ من جوي وليلى ضحكاتهما. والأخيرة تشير لسارة بالصمت:

- لو سمعتك سنقضي الليل هنا.. لذا ششششش.

في هذه اللحظة ارتفع الصوت المشوب ببحة صغيرة:

- وجدته.

وعادت السيدة نحوهما مناولة سارة الهاتف:

- عذرًا فتيات فأنا مهملة قليلاً.. أوه مهلاً. تعجبني قلادتك..

ابتعدت سارة واضعة الهاتف على أذنها ليخفت صوتُ السيدة قليلاً عن مسامعها وقد اختلط بصوت جودي التي ربما وبشكلٍ ما بدأت تروق لها السيدة الغريبة تلك؛ فقد دخلت معها بحديث ممل نوعًا ما عن القلادة وارتفاع أسعار المجوهرات... إلخ.

لم يرد الرقم الذي طلبته فجربت من جديد وقد شعرت بالخدر بأصابعها الباردة، واضعة الهاتف فوق أذنها تنتظر. استدارت قليلاً نحو الجمع الصغير جوار السيارة لتجد الحديث بين الفتاتين والسيدة ما زال جاريًا.. لكن الصوت الخشن قليلاً أتاها عبر سماعة الهاتف يجيب بنعاسٍ:

- مرحبًا..

ابتهجت وهي تُجيب:

- آدم.. هاي.. إنها سارة.

- سارة؟! بهذه الساعة؟!

توقف عن الكلام لحظة وقد أتى صوتُ خشخشة ما جواره:

- ماذا حدث؟

حكَتْ له باختصار وهي تعاود النظر نحو الأخريات ثم أنهت كلامها بالقول:

- أيمكنك أن تأتي لتقلنا؟

صمت للحظاتٍ ثم قال:

- سيكون هذا صعبًا.. لكن أين أنت بالتحديد؟

نظرت حولها لا إراديًا وهي تُحرِّك يدَها:

- لا مكان.. أخبرتك أن السيارة توقفت بوسط الطريق.. كيف لي أن أعرف...

قطع كلامها:

- حسنًا.. حسنًا سأتصرف.. وداعًا الآن.

أنهت المكالمة وعادت لصديقتيها فنظرت الأُخرَيَين لها بوجهٍ بشوشٍ، لكنها سلَّمَت الهاتف للسيدة بضيقٍ واستندت للسيارة قائلة:

- قال: سيتصرف.

زفرت ليلى دون حديثٍ؛ فقالت السيدة سائلة:

- أهذا شيءٌ سيئ؟

فركت سارة عينيها بإرهاقٍ وهي تُجيب:

- عندما يقول آدم إنه سيتصرف فهذا يعني أنه سيستغرق ساعتين للتفكير ثم ساعتين أُخريَيْن لاتخاذ قرارٍ يراه مناسبًا.

صمتت.. ثم صمتت السيدة للحظة، لكنها عاودت الحديث بابتسامة دافئة:

- يمكنني إيصالكن.

رفعت سارة وجهها ناظرة لها ثم نظرت إلى صديقتيها قليلاً:

- لا نرغب بالتطفل حقًّا..

قاطعتها السيدة محرِّكة يدها فأصدرت أساورها صليلاً:

- لا.. لا تطفل طبعًا.. إنه واجب. لا يمكنني ترككن هكذا وسط الطريق طوال الليل.

بدت سارة مترددة، لكن صوت جودي أتى:

- لا ندري.. ربما..

قاطعتهن ليلى وهي تعتدل:

- هلا عذرتنا للحظة سيدتي من فضلك؟

ساد الصمت قليلاً ثم أومأت السيدة وقد بدت متفهمة وتراجعت نحو سيارتها..

راقبتها ليلى قليلاً ثم مالت نحو سارة وجودي لتقترب منهما:

- لا أظن أنه من المستحب أن نرافقها.

حركت جودي كتفيها:

- ولمَ لا؟ تبدو...

قاطعتها ليلى:

- غريبة الأطوار.

تجعدت ملامح جودي وهي تضيف:

- كنت سأقول لطيفة.

قالت سارة وهي تتابع الفتاتين:

- لا أدري.. أنا مترددة، لكن لا يمكننا البقاء هنا طوال الليل، ثم إنها...

نظرت نحو السيدة بالسيارة وتابعت:

- هي واحدة ونحن ثلاث.. لا أظن أن شيئًا سيئًا قد يحدث ونحن معًا.

تابعتها جودي وليلى بنظراتهما ثم حركت ليلى كتفيها بلا مبالاة وهي تلتقط حقيبتها: وهي تلتقط حقيبتها:

- على ضمانتك أنتِ.

نظرت نحوها سارة ثم التقطت حقيبتها بدورها وتقدمت الثلاث نمو السيارة الزرقاء بمنتصف الطريق لتميل جودي عبر النافذة الأمامية قائلة بابتسامة:

- حسنًا.. قَبِلنا العرض.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دقت الساعة القديمة بمكانٍ ما بقاعة الاستقبال بمنزل سارة فأخرجت جودي من شرودها المتكرر.

ربما في الوقت المناسب تمامًا لترى سارة قادمة وقد أشرقَتْ ابتسامتها..

جلست بالمقعد المقابل لجودي وقد جاء صوتها ناعمًا:

- عذرًا على التأخير.

حرَّكَت الأخيرة رأسها وقد تصنعت ابتسامة بدورها:

- لا عليكِ حبيبتي.. كيف حالك؟

بدأت سارة بحديث مزدوج يتخلله الكثير من الابتسامات المفتعلة والضحكات المصطنعة وبالتأكيد الود غير الواقعي بالمرة..

كانت سارة تدرك تمامًا أن الفتاة التي تجلس أمامها الآن تكرهها حتى النخاع، ولمَ لا وهي تكرهها بالمثل؟

كيف؟ أوه لم تعد الكراهية المتبادلة بين الصديقتين هي الشيء المستغرب؛ فمنذ تلك الحادثة التي فقدت فيها كلتا الفتاتين الطرف الذي كان جمعهما سويًّا انقطع شيءٌ ما بينهما، رباطٌ ما خفيٌّ لم تدركا أنه هناك قَطّ حتى رأته كلتاهما ممزقًا، وسرعان ما دارت دفة الحديث بينهما إلى مواضيع تافهة لا تعني كلتيهما بشيءٍ.. لكنها بشكلٍ ما أبعدت الحوار عن احتمالية ذِكر أي منهما لـ «ليلى» الراقدة بالمستشفى.

ضحكة أخرى مفتعلة أطلقتها سارة ثم بدت كمن تنبه لشيءٍ فجأة، فقالت بصوتٍ عالٍ:

- أوه.. يا لوقاحتي! أنا لم أجلب شيئًا ما لنشربه.

ضحكت جودي محركة يدها بإهمال:

- لا عليك سارة.. منذ متى وقد كان واجب الضيافة لازمًا؟ نحن أختان.. صحيحٌ؟

قالتها وقد ضغطت على الكلمات الثلاث الأخيرة، لكن سارة لم تَبدِ تأثرها، بل نهضت متوجهة للمطبخ الملحق خلفها وقد أتى صوتها مرحًا:

- لا أعذار جودي.

أخرجت حامل الأكواب وباشرت بفتح باب المبرد عندما شعرت بجسدها يرتجف من جديدٍ وقد وقع نظرها على الرف الأول، لكنها تمالكت نفسها من جديدٍ ومدت يدها لتخرج العصير البارد ساكبة البعض بكوبين متماثلين وحملتهما بحرص للخارج.

وضعت الكوبين فوق المنضدة الزجاجية الصغيرة بينها وبين جودي، وجاء صوت الأخيرة مازحة:

- أرجو ألا تكوني قد وضعتِ سمًّا لي بالشراب.

على الرغم من أنها ارتجفت قليلاً، لكن سارة قالت مازحة:

- لست بهذه الدرجة من السذاجة عزيزتي.

وحملت كوبها لترتشف بعضًا من العصير البارد، وبدورها حملت جودي كوبها لتبدأ بالشرب..

- أووه.

أتى صوتها متألمًا قليلاً وقد وضعت الكوب فوق المنضدة بسرعة، رفعت سارة بصرها نحو صديقتها فقالت الأخيرة:

- جرحت شفتي.

وضعت إصبعها فوق نقاط الدماء التي بدأت بالتجمُّع على شفتها العليا فسارعت سارة لمساعدتها لكن جودي ابتسمت قائلة:

- لا داعي للقلق، إنه شيءٌ بسيطٌ.. جرحتني حافة الكوب فقط..

يبدو أنك لا تحسنين اختيار أكوابك سارة.

ضحكت الأخيرة بقلقٍ وهي تنظر لصديقتها فبادرتها جودي بالحديث:

- سارة.

- ماذا؟

قالتها سارة بهدوءٍ.

- هل تذكرين ما حدثَ بالفعل؟

عندها صمتت سارة تمامًا وقد سادت برودةٌ مفاجئةٌ الحجرةَ.

ولم تتوقف كاميليا عن الحديث، منذ أن وافقنا على مرافقتها وتم التعارف لتفصح عن اسمها بمرح..

- كاميليا..

كانت أول كلمة قالتها ومنذ تلك الثانية المشئومة لم تتوقف عن الكلام؛ لهذا عليكم أن تعذروني إن بدوت ضجرة.

يرتفع دوي ضحكات سارة بالمقعد الأمامي لأشعر بجودي جواري تستند إلى المسافة الفاصلة بين المقعدين لتشارك الاثنتين الحديث.

من جديد رنت أساور كاميليا الغريبة وهي تمد يدها لتدير أزرارًا جوارها؛ فانطلقت نغماتٌ مثيرة للأعصاب من المسجِّل الخاص بالسيارة. غريبة والموسيقى التي تسمعها أغرب، هكذا زفرت بضيق أكثر وأنا أنظر للخارج.

- هل هناك مشكلة ليلى؟

هكذا جاء صوتها، فرفعت نظري عن الطريق لأجد انعكاسَ نظراتها إليَّ بمرآة السيارة الأمامية، ابتسمت محركة رأسي نفيًا وعاودتُ النظر للخارج.

جواري ضحكت جودي وهي تستند بذقنها إلى يديها المعقودتين بين مقعدي السيارة وقالت:

- ليلى ملولة دائمًا هكذا.. اعذريها فهي ليست وقحة إلى هذه الدرجة.

تجاهلت تعبير جودي المشاكس وأنا أتظاهر بالنظر إلى الخارج، فلكزتني لأعاود النظر إليها من جديد:

- أوه جودي حسن أخلاقك يملؤني حبورًا.

ساد الصمت السيارة لفترة إلا من صوت المسجل، لمحت نظرات سارة التي استدارت لي نصف استدارة جوار الزجاج، لكنني لم أهتم، في الواقع كان شعوري بالملل يضيق الخناق على أعصابي.. هكذا أنا، كلما كان الملل أكبر، كانت العصبية في ازدهار.

- لدي فكرة.

قالتها كاميليا بصوت غريب قليلاً؛ فنظر ثلاثتنا نحوها. لم تنظر إلينا بل ظل تركيزها على الطريق بينما تقول بخبث:

- لنلعب لعبة صغيرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دوي الساعة من جديد يشير إلى الرابعة عصرًا..

رائحة المطهرات تفعم أنف السيدة كروفر، كيف لا وقد التصق وجهها المتغضن بالأرض الرخامية الباردة؟! صيحة انطلقت من خلفها، لم تتبينها كثيرًا بسبب الصفير المتواصل بأذنها، لكنها شعرت.. شعرت بمن يحملها، بمن يضرب وجهها، بمن يضعها فوق فراش متحرك، شعرت بحقن ينغرس بذراعها. بحركة غير اعتيادية حولها.

سمعت كذلك حوارًا متخبطا، أصواتًا كثيرة تنادي، سمعت طنين جهاز رسم القلب، ورأت بعينيها الضبابية وجوهًا مذعورة.. ما الذي يحدث؟ رغبت بقولها. لكنها لم تجد القوة الكافية بصدرها للتنفس، ناهيك عن التساؤل.

هل حدثَ شيءٌ ما لابنتي؟

لماذا لا يستطيع مَن حولها سماعها؟ هي لم تدرك ما الذي حدث، لكن الذعر بدأ يتملكها شيئًا فشيئًا..

ابنتي.. هل حدث شيء ما لابنتي؟

ودت لو تصرخ بها، لكنها لم تحتَج لوقتٍ طويلٍ حتى تدرك أن الحركة والصيحات لم يكونوا من أجل الفتاة بل كانت من أجلها هي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مدت كاميليا يدها عابثة بالأزرار لتغيِّر نوع الموسيقى فحلت محلها نغمات أكثر عمقًا، لكنها بدت مقبضة.

ظلت رفيقتاي صامتتين حين نظرت كاميليا إلينا عبر المرآة الأمامية ثم بدأت تتمتم بشيء ما غريب.

- عذرًا:

قالتها سارة وهي تنظر إليها بتعجب، لكن المرأة لم تلتفت، بل ظلت الكلمات غير المفهومة تنساب من فمها وقد اتخذت وضعًا متصلبًا فوق مقعدها، انحنت جودي جهتها بقلقٍ، لكن السيدة لم تُبدِ أيَّ تعبير فالتفتت جودي جهتي، لكن سرعان ما اندلعت صرختها.

الألم كان حارقًا، حارقًا فعلاً وكأنه يمزقني من الداخل، بالكاد كنت أرى الموجودات بالسيارة وسط الضباب المتكاثف أمام عيني، نهش الصداع عقلي للحظات قبل أن أشعر بجسدي يرتج بالكامل.

صرخت جودي جواري من جديد والتفتت سارة للخلف لتصرخ بدورها، بالكاد سمعتهما، بالكاد شعرت بيد جودي تعتصر ذراعي التي انتفضت العروق من أسفلها، الصوت الوحيد الذي وصلني واضحًا كان صوت المرأة بالمقعد الأمامي.

حاولت الحركة ثم حاولت الانتباه.. كنت أشعر بثقل جسدي وتضخم الصوت بعقلي لأبدأ بالصراخ بدوري..

حاولَتْ جودي التصرف، لكنها كانت عاجزة ولم تتوقف سارة عن الصراخ.

- أوقِفوها!!

صحت بذعرٍ:

- أوقِفوهاااا!!

اختلطت صيحتي بأنّات الألم؛ فهبت سارة تحاولِ إيقاف كاميليا، لكن يبدو أن تعبيرها بدا مخيفا بالدرجة الكافية ليدفع سارة للاندفاع للخلف وقد تملَّكَها الذعر.

لكن تدخُّلها تسبَّب في تشتيت المرأة، وبدت الرؤية أوضح أمامي وإن استمر الألم، في هذه اللحظة وثبت من مقعدي وأنا أصرخ ألمًا لأطبق على عنق كاميليا وسط صرخات صديقتي.

انحرفت عجلة القيادة عن الطريق حين أفلتتها كاميليا فحاولت سارة الانقضاض عليها وأعادتنا للطريق وسط صياحنا والحركة الفوضوية داخل السيارة.

لم أكن أنظر نحو الطريق حينها، بل لم أكن أهتم حتى بحركات سارة العنيفة بالمقعد المجاور، لم أكنِ أنظر سوى لوجه كاميليا في المرآة بينما يداي تطبقان على عنقها بعنفٍ، توقف الألم لكن الغضب حلّ محله، غضب كان من الصعب تخيُّل أن يصدر منِّي أنا..

أنا التي لم تؤذِ أحدًا في حياتها ولو حتى حشرة صغيرة.

خمشت يدُ كاميليا يدي، لكنني كنت قد تسمرت مكاني وقد رأيت انعكاسَ ملامحها في المرآة، ترجرج قلبي واختلت يدي من حول عنق السيدة قليلاً وعيناي تتسعان ذعرًا في اللحظة ذاتها تقريبًا التي رنت بها صرخة جودي بأذني لأدرك برعبٍ أننا ننقلب من فوق الطريق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لاحظت سارة حركة البيدق الأسود فوق لوحة الشطرنج فصاحت ضاحكة:

- جودي.. أنتِ تغشين.

عضت جودي على شفتها ضاحكة هي الأخرى وقالت بمرحٍ:

- كش...

لكن وقبل أن تكمل الجملة ارتفع رنينُ الهاتف فاعتذرت منها سارة للحظاتٍ..

ممسكة بسماعة الهاتف الأسمر جاءتها الكلمات المتتابعة التي لم تستطع أن تميِّز منها سوى:

- ليلى.. مسز.. حاولنا.. ماتت.

ضاقت عينا سارة ثم اتسعتا بعدم فَهمٍ. فتحت فمها لتجيب، لكن حشرجة مريعة خلفها دفعتها للالتفات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا أذكر من هذه الفترة سوى اللهاث المتقطع، الألم الحارق بركبتي والظلام.

امتقع وجهي وأنا أزحف خارج السيارة، كنتُ سليمة الجسد. لكنني مفككة العقل، بحثت عن الفتاتين جواري وأنا أستند إلى يدي بألمٍ.

- جودي..

نظرت حولي وسعلت.

- جودي.. هل أنتِ بخير؟

انتظرت أن تأتي أنَّة ألم، حركة حصار، أي شيء خلاف الصمت الذي قابلني، تنبهت قليلاً وأنا أجد طريقي وسط الظلام باحثة عن سارة هذه المرة، لكن عاد الصمت يقابلني من جديدٍ.

بدأت أشعر بالرعب متوقعة الأسوأ، استندت بيد ترتجف إلى الخردة المعدنية التي كانت سيارة يومًا ما وأنا أحدق بالداخل باحثة عن صديقتيّ أو حتى عن جسديهما.

لكن – لدهشتي – كانت السيارة فارغة تمامًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حدقت بالسقف بشرودٍ تامٍ وجسدي ينتفض غضبًا..

على الرغم من أن ساعات كثيرة مضت منذ أن ركضت حافية القدم إلى منتصف الطريق والألم يعتصرني فإنني ما زلت أجد صعوبة في تصديق ما حدث، توقفت أكثر من سيارة وقد رأت سيارتنا المقلوبة ليبدأ الحشد في الزيادة شيئًا فشيئًا.. وأخيرًا استطعت أن ألمح سيارة الإسعاف بأضوائها الحمراء، لكنني كنت مغيَّبة، كنت في عالمٍ آخر تمامًا من الذعر وعدم الفهم.

حين أمسك بي رجال الإسعاف ليحملوني فوق النقالة الحديدية كنت أشعر بهم بصعوبة وأنا أستعيد ذِكر وجه كاميليا في المرآة، ذلك الوجه لم يكن بشريًّا.

توقفت عن التفكير وأنا أشعر بمادة باردة تتسرب إلى جسدي عبر ذراعي، بدأت أحس بالثقل في جفني لكنني كنت أقاوم، أحتاج للبقاء مستيقظة قليلاً بعد.. جودي، سارة.. ما الذي حدث لهما؟!

كنت خائفة حتى حين غبت عن الوعي، لكنني حين استيقظت للمرة الأولى لأجد نفسي بالمستشفى، تبدَّد خوفي ليحل محله الغضب.. الغضب والكراهية العميقة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مضى بعض الوقت وأنا ما زلتُ في الوضع ذاته دون حراكٍ، فقط أحدق في الظلام وبعقلي ترتسم أبشع آيات التعذيب التي يمكنني تخيُّلها.

جودي وسارة لم تختفيا قَطّ، بل تركتني كلتاهما بالسيارة وفضَّلتا الهرب.

لا بُدَّ أنني كنت أبدو في حال سيئٍ جدًّا حينها، لا بُدَّ أنهما ظنتا أنني ميتة وفضَّلتا اللوذ بالفرار على التورط معي.

عرفت هذا مصادفة حين أفقت من تأثير المخدر، عرفته حين سمعت صوتهما تتحدثان مع شخصٍ ما أمام باب غرفتي دون أن تدخل أيٌّ منهما حتى للاطمئنان عليَّ.

ليتني ما عرفت هذا، هكذا فكرت، الآن كنت أستلقي هنا بين أنابيب المحاليل والستار الشاحب لأحدق بالسقف وجسدي ينضح بالكراهية، ظننت أن هذا سيساعدني على تخطي الأمر، إخراج طاقتي المكبوتة في الخيالات كان أفضل وسيلة أستخدمها للهدوء، لكن لسبب ما لم يفلح هذا، بل أجبرني على التفكير في أمورٍ لم أفكر بها قبلاً.

أنا لستَ جميلة مثل جودي، ليس لدي الشعر الانسيابي اللامع ذاك أو العينان الصافيتان، لم أكن طويلة القامة كالمشجعات أو ذات ابتسامة مشرقة كعارضات الأزياء..

ولست في مثل مستوى سارة الاجتماعي، بالتأكيد عائلتي لا تمتلك منزلاً كالقصور، أو حديقة مُلحَقَة أو سيارة خاصة، لا نقضي إجازاتنا بفرنسا، ولا أحصل على هاتف نقَّال يعمل باللمس كهدية لعيد ميلادي.

كنت عادية.. عادية بكل شيء، متوسطة الجمال ذات شعر بني قصير وابتسامة هادئة.. متوسطة الطول والقدرات الاجتماعية، متوسطة المستوى المادي.. كنت – وببساطة – الفتاة المتوسطة بينهما.

ظننتهما تفهمتا هذا، ولهذا صرنا صديقات، صديقات فقط؟ بل أعز صديقات.

كيف تتركانني هكذا؟ كيف؟

حاولتُ إقناع نفسي أنني أبالغ، لكن عقلي استمرَّ في النبض بعنفٍ.

وسط الظلام بدأت ذبذبة حارة تخترق جسدي بالكامل، لم أعطِ هذا اهتمامًا ظنًّا منِّي أن هذا ما هو إلا أسلوب جسدي في إخراج طاقته حتى أهدأ، ربما لم أشعر بهذا من قبل؛ لأنني لم أكن على هذا القدر من الغضب سابقًا، لكن عندما بدأتْ ضربات قلبي بالتسارع والرؤية بالتشوش أمام عيني، عندها فقط بدأت أشعر بالذعر.

استعدت الشعور بما شعرت به سابقًا في سيارة كاميليا، لكنه هذه المرة كان من دون ألم، حاولت التحرك، لكن جسدي كان ثقيلاً، ثقيلاً كما لو كان مثبَّتًا تمامًا إلى الفراش.

اتسعت عيناي هلعًا وحاولتُ الصراخ، لكن صوتي أتى شاحبًا. باهتًا كما لو كان مختنقًا، ما الذي يحدث؟ لا أعرف.

تسارعت أنفاسي واضطربت، لكنني قررتُ محاولة الهدوء، كان هذا عسيرًا، لكنني ظننت أن الهدوء قد يكون وسيلتي الوحيدة لإصلاح ما يحدث، لم أفهم ماذا أصابني بالضبط، لكنني قدَّرت أنه سيئ، سيئ كمرض، سيئ كضغط عقلي زائد ربما، سيئ من النوع الذي يهاجمك ثم ينتهي دون أن يخلف أضرارًا تُذكَر..

لكنني كنت مخطئة، كنت مخطئة تمامًا ولم أدرك هذا إلا حينما حاولت النهوض من جديد بعزم أكبر هذه المرة، بالفعل تمكنت أخيرًا من الجلوس.

راح صدري يعلو ويهبط بصعوبة، وشعرت بالعرق البارد يغمر جبهتي، لم أهتم بمعرفة تفسير ما حدث للتو، كنت سعيدة بالنجاة وكفى.

بالطبع كان هذا حتى نظرت تلقائيًّا إلى فراشي، حيث كنت أرقد منذ لحظات، أو لأكن أكثر دقة حيث ما زال جسدي يرقد في ثبات.

لحظاتٌ كثيرة مرت ما بين ذعر وصراخ، انتفضت لأركض عبر الغرفة باحثة عمن يعينني، بكيت وأنا أنظر لجسدي المسجى دون أن أفهم أو أدرك ما حدث.

لكن حين انتهت دموعي وبدأ الاستسلام بالتوغل إلى نفسي بدأتَ بالإدراك، وبدأتَ بملاحظة أن الجسد الراقد باستسلامٍ فوق الفراش كان يتنفس.

لم يكن هذا موتًا.. بل هو شيء آخر.. شيء سأحتاج لوقتٍ طويلٍ كي أفهمه. لكن حين أفهمه أخيرًا.. سأبدأ بتنفيذ انتقامي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ألقت سارة ساعة الهاتف وركضت نحو صديقتها..

كانت جودي تمسك بعنقها شاهقة كمن يغرق، وقد بدأت شفتاها بالتحول لدرجة من درجات الأزرق الخفيف، أغلقت عينيها بقوة محاولة انتزاع ما برئتيها من هواء.

لم تبدأ بفهم ما الذي يحدث لها إلا عندما لمس لسانها المبتل البقعة المجروحة بشفتها السفلى، ولم تفهم تمامًا إلا عندما رفعت عينيها إلى صديقتها لترى، لا نظرات الذعر.. بل الشفقة.

لكنها لم تستطع التصديق، لم يستطع عقلها استيعاب حقيقة أنها تموت في هذه اللحظة بالذات بفعل صديقتها التي وقفت تراقبها دون حراكٍ..

لم تستطع التصديق على الرغم من أنها علمت أن هذه اللحظة آتية لا محالة، منذ أن تم إيداع ليلى المستشفى والكراهية العميقة تتعاظم بين الصديقتين، تشعلها حرارة الذكرى من حينٍ إلى آخر.. الذكرى التي رفضت التخلي عنهما على الرغم من أن كلتيهما حاولت التخلي عنها في كل لحظة مضت.

الكراهية تؤدي إلى الغضب، الغضب يؤدي إلى التفكير بالانتقام، والتفكير بالانتقام لا يؤدي إلا إلى الموت.. موت عندما تخيلته جودي لم تتخيله بهذه الطريقة، بل كان الوضع بعقلها معكوسًا.

شهقت من جديدٍ.. الذعر، الألم.. وعندما تحركت سارة جوارها لا مبالية لتحمل بقايا السهرة متوجهة نحو المطبخ، لم يسيطر على عقل جودي المحتضر إلا فكرة واحدة.

- آسفة جودي.

أتاها صوت سارة الخاوي وهي تقف جوارها، لم تَقُل غيرها واستدارت مبتعدة، لكنَّ يدَ جودي أطبقت على ساقها مخلة بتوازنها، لم تكن سارة بقاتلة؛ لذلك كانت هشة إثر جريمتها، وهذا ساعَدَ جودي كثيرًا بالواقع.

الصيحة والسقوط وصوت التهشم.. ذلك إن دلَّ على شيءٍ، لم يكن ليدل على أكثر مما تمنت جودي، إن لم تَمُت إثر السقوط فوق الزجاج ستموت إثر الجروح التي سببها زجاج الكوب المسموم، لا بُدَّ أنها تذوقت سمها الخاص الآن..

هكذا ابتسمت جودي وهي تهمس قبل أن تغيب بأحضان الموت:

- وأنا آسفة سارة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

للقدر ألاعيب غريبة وله قوانينه الخاصة..

القدر لا يمنحنا كل شيء، لكنه لا يسلب منا كل شيء كذلك..

إن رآنا البعض حمقى؛ فهذا لا يعني أننا حمقى، كذلك إن رآنا البعض موتى فهذا لا يعني أننا دائمًا موتى.

هكذا ترى ليلى (الميتة إكلينيكيا) وهي تتحرك بتروٍّ داخل فراشها الذي لزمته لأكثر من ثلاثة شهور كاملة.. هكذا ترى الطبيب الذي أتى من مكانٍ ما ليفحصها، وترى الفرشة الحسناء تنتزع الأجهزة عن جمودها وقد أشرق وجهها بابتسامة غير مصدقة، أيُّ معجزة هذه التي حدثت؟

هكذا لك أن ترى ابتسامة ليلى المرتاحة وقد غدت تنظر إلى الدنيا بعين من تذوق لذة النصر، ولمَ لا وقد حصلت على انتقامها أخيرًا؟!

لم يكن الموت هو ما حصد روحي تلك الليلة، انفصال الروح عن الجسد لا يعني دوما النهاية. الأرواح تتلاقى..

ليس فقط في الموت.. بل بالحياة كذلك..

بعضها يراقب فقط..

بينما البعض الآخر يسعى للانتقام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس

كم بدا أزيز الحشرات بشقوق الجدران عاليًا وسط هذه اللحظات من الصمت.

استمررت بالتحديق إلى باب الشقة شبه المفتوح مختلسًا نظرات نحو الفتاتين بالداخل عندما لاذت ليلى بالصمت أخيرًا، كنت مشوش الفكر أقلب ما حكته برأسي، محالٌ استنتاج خيط ما يقودني لفتح حديث معها، لكنني لم أكن قد توصلت لشيءٍ بعد؛ لذا طال الصمت أكثر، خاصة وقد اكتفت هي بالتحديق للأرض بوهنٍ.

تذبذب الضوء المُقبِل من الأعلى قليلاً فرفع كلانا رأسه مستطلعًا ما يحدث، لكنه سرعان ما ثبت فعادت هي تنظر للأرض ونظرتُ أنا تجاهها لأقول بصوتٍ خافتٍ:

- كيف؟

لم أحصل على إجابة منها فعاودت سؤالها، هذه المرة حدقت بي قليلاً ثم تفادت النظر إلى وجهي لتقول:

- حسنًا.. حين تكون خارج جسدك يصبح بمقدورك التلاعب بأفكار الآخرين، أعني: هما تكرهان بعضهما بالفعل، لَم تحتاجا إلا إلى دفعة فقط..

توقفت عن الكلام تاركة إياي لخيالي الذي بدأ برسم ما حكته لي، هذه المرة شعرت بالنفور لا الدهشة فالتزمت الصمت.

- اتضح أن انفصال الروح عن الجسد وعودتها ليس بهذه السهولة.

اعترتها آيات الألم حين نطقت بهذه الكلمات فانتبهت، ضاقت عيناي قائلاً:

- إذا.. أنتِ لستِ...

قطعت كلماتي عندما حركت رأسها نفيًا وأشاحت بوجهها عني:

- جسدي يرقد بمستشفى قريب من هنا.

مرَّ طيف ابتسامة ساخرة على وجهها وهي تتابع:

- يبدو أن روحي لم تَعُد تجد جسدي ملائمًا لها.

عاودت الابتسام بمرارة، لكنني لم أرَ ما يضحك بالأمر، على العكس كنت أحدق بها بوجوم وقد تلاشى أملي الأخير بطلب المساعدة منها، أبعدتُ نظري عنها بحنقٍ لا يدَ لي فيه وتحركتُ لأبتعد متجهًا إلى درجات الطابق الأعلى علَّني أتمكن من الوصول للسطح، فالصراخ طلبًا للمساعدة، كما كانت خطتي الأولى، لكنني انتبهت فجأة لقبضتها التي اشتدت فوق ذراعي:

- إلى أين تذهب؟!

قالتها بعينٍ مندهشة، فحملقت بها دون فهم:

- بل ابقي هنا.

قالتها وكأنها تقر أمرًا واقعًا؛ فحدجتها بفطرة قلقة منتظرًا أن تخف قبضتها عن ذراعي، لكنها استمرت تعتصرها دون حراك، بدت كأنها تسمرت فجائيًّا، حين بدأت أحاول سحبَ يدي من قبضتها أدركت كم كانت قوية حقًّا بالنسبة لأنثى؛ لذا توترتُ أكثر وقد هالني أن أتذكر أنني لا أتعامل مع بشرٍ أصلاً:

- ليلى..

نطقت اسمها بنبرة ضعيفة علَّها ستجيب، لكن كلماتي تبعتها أنَّةُ ألمٍ وانتفاضة حين بدأت قبضتها تشتد أكثر حتى أوشكت أظافرها الغوص بجلدي البارد، لم تكن تتحركً بل ظلت تحدق بي فقط دون كلام، تحول توتري إلى خوفٍ، ثم نضج ليتحول إلى ذعر، وتوالت محاولاتي للتخلص منها، صحت بألمٍ أكبر حين بدأت أفقد الشعور بذراعي، وقبضت على يدها الملتفة حولها بكلتا يدي أحاول الفرار، كانَ الأمر أشبه بالوقوع في قبضة تمثال حجري؛ لأنها سكنت تمامًا مبدية تجاهُلاً تامًا لوثبي وصراخي المتتابعين.

أبعدت عيني عن يدي بينما أحاول تخليصها ورفعتهما نحو عينيها اللتين ظلتا متسعتين تحدقان بجهة واحدة دون أن يطرف لها جفن أو تبدو عليها أي أمارة تدل على إدراكها لما يحدث أصلاً، اللهم إلا من قبضتها فقط التي ازداد خناقها على يدي ببطءٍ كأنها تحاول اقتلاع ذراعي، اهتزَّ الضوء من جديدٍ بالأعلى وبدأ صياحي يشتد حين انغرست أظافرها أخيرًا بالجلد لتبدأ النقاط السوداء بالظهور أمام عيني والنقاط الحمراء بالانبعاث من يدي.

رمش الضوء أكثر في هذه اللحظات وسط صراخي، وأصبحت أدفعها عني دفعًا وقد أصبت بالهلع، حتى إنني بدأت أصيح بالسكان كي يبعدها عني أحدهم، الألم اشتد فعلاً وصدر طنين مقزز بأذني؛ فعاودت الصراخ حتى انطفأ الضوء فجأة وغرقت بالظلام الدامس.

في هذه اللحظة فقط اختفت القبضة عن يدي.. وتحررت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كم مضى من الوقت؟

لحظات، دقائق، ربما ساعات مرت دون أن أشعر وأنا قابع أرضًا أستند بظهري إلى سور السلم، يداي تحيطان بساقي المضمومتين إلى صدري، وجسدي بالكامل يرتجف وسط الظلام.

لم أشعر في حياتي بالعجز كما شعرت الآن، رغبت بالبكاء، إلا أنني كنت أخشى أن يدفعني هذا لعملٍ أحمق، رغبت بالصراخ لكنني خفت أن يسمعني أحدُهم، بل إنني وددت لو أتمكن من التكوم حيث أنا وفقدان الوعي، لولا خشيتي الألم إن استيقظت لأجدهم يمثلون بجسدي اللاواعي.

صدرت فرقعات خفيفة تردَّد صداها بالفراغ حولي، ثم عادت الأضواء من جديدٍ؛ فرفعت عيني تلقائيًّا دون أن تنحل يدي من حول ساقي ناظرًا حولي، ليلى اختفت، شككت بهذا حين انحلت قبضتها عن

يدي، لكنني – وقد عاد الضوء الآن – أدركت أنها لم تختفِ وحدها لأنني كنت أحدق بجدار مسمط تمامًا.

احتبس الهواء بصدري وعقلي يحاول انتزاع نفسه من حالة الشلل دون جدوى، أغراني البقاء هنا والتقوقع وليحدث ما يحدث، الموت خوفًا أفضل من الموت ألمًا على الأقل، لكن غريزة الهرب داخلي وخزتني كي أعاود التفكير من جديد في طريقة للخلاص.

كان أمامي خياران: إما العودة إلى الأسفل مغامرًا بمقابلة السكان الذين تركتهم للتو، وقد أتمكن من الوصول إلى الباب والخروج دون التعرض للأذى، وإما إكمال طريقي إلى الأعلى بحثًا عن السطح ربما أتمكن من الصراخ.

أو حتى القفز إلى مبنى مجاورٍ كي أنجو.

عاودت الانتباه إلى الجدار الفارغ أمامي، لكن هذه المرة توقفت عن محاولة تعقُّل ما حدث أو علاقة انقطاع الضوء باختفاء الفتاة والشقة. عوضًا عن هذا كنت أفكِّر في احتمالية أن انقطاع الكهرباء أخفى الشقق بالأدوار العلوية كما حدثَ هُنَا، دفعتني طريقة التفكير هذه إلى الضحك، لكنه كان ضحكًا ماسخَ المذاق.

حاولت إقناع نفسي بأن الأمل في الخروج ما زال موجودًا وتحاملتُ لأنهض، وقفتُ بمكاني للحظاتٍ كي أستعيد الشعور بساقي، ثم تحركت بتراخٍ لأصعد وأنا أفكر في إمكانية كوني مخطئًا، ماذا إن كان التوجه لأعلى هو طريقي للهلاك؟

وسط استسلامي كانت فكرتي الوحيدة هي، فلأصعد وليكن ما يكون...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أول ما لاحظته قبل أن أصل حتى كانت الحرارة، الهواء أصبح ثقيلاً حتى صار التنفس أمرًا شاقًا، علاوة على الرائحة الغريبة التي كللت المكان بالكامل، شككت في ماهيتها، لكن ما إن وضعت أولى خطواتي بالطابق حتى تأكدت شكوكي، فالرائحة المثيرة للغثيان تلك لم تكن سوى الرائحة الصدئة للدماء.

اعتصرت سور السلم بأصابع متجمدة وقد أنستني دهشةُ المشهد قدرتي على التفكر السليم.

لم يكن هذا طابقًا أصلاً.. بل كان حجرة.

اتسعت عيناي كي تمتصا الضوء الضعيف المقبل من مصباحٍ شبه ساقط بأحد الأركان، كان المشهد غريبًا بالفعل، انتهت درجات السلم بين جدارين مستطيلين وامتدت الحجرة أمامي مبعثَرَة الأثاث وكتل من الدماء المتجلطة تغطي أجزاء من أرضيتها، ثم انتهت بباب قديم ثنائي كجميع أبواب الشقق التي قابلتُها بالأسفل، رأيت عبره ممرَّ السلالم وجزءًا من درجات صاعدة لأعلى، أي أنني كنت أرى الطابق من داخل الحجرة هذه المرة.. لا من خارجها.

آلمني صدري فأدركت أنني كنت قد توقفت عن التنفس، وبالتالي أخذت نفسًا عميقًا وتخلت يدي عن سور العلم خلفي لأتقدم بخطوات مسرعة، لكن حذرة، ووجهي قبل الباب، أردت الخروج من هنا قبل

أن أقابل ما لا تَحمد عقباه، لكنني عجزت عن التركيز وتلفتّ أنظر حولي بفضول ممزوج بالرهبة.

الحجرة كانت عادية للغاية، لا أثر بها للقِدم، على العكس كان أثاثُها حديث الطراز وإن كان ممزقًا، هناك جهاز عرض بأحد الأركان أغلبه يرقد فوق الأرض، لوحة مفاتيح خاصة بكمبيوتر ما، رأيتها تحتل المسافة الفاصلة بين مجموعة من الأوراق المجعَّدة، أظنها لوحاتٍ أو صورًا، هذا بخلاف كتل الدماء المتجلطة المختلطة بالعفن فوق الجدران والأرض.

سواءٌ كان هذا المكان شقة أحد يومًا أم كان أحد الأشياء اللامفهومة التي اعتدت رؤيتها منذ دخلت المنزل، فهناك شيء مريع حدث هنا. أعادت هذه الفكرة انتباهي فعُدت للإسراع بخطاي بعد أن كنت قد توقفت، لكن ما إن وقعت عيني عليه حتى توقفت فجأة ومن دون إنذار وقد اختلج قلبي بين ضلوعي.

لم يكن شخصًا أو حتى شبحًا، بل كان هاتفًا نقَّالاً صغيرًا ملقيًا بإهمال جوار الجدار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع

«أرجوك اعمل.. أرجوك اعمل».. كنت أردِّدها بنفسي حبين هرعت نحو الجهاز لألتقطه بيدٍ راجفة داعيًا أن تكون هذه وسيلتي للخروج. توقعت ألا يعمل بالطبع كجميع الأشياء الغريبة هنا. لكنه لدهشتي أضاء بسهولة، وحين ضغطت على أرقام الطوارئ واضعًا إياه قُرب أذني وجسدي ينتفض سمعت الرنين.

تلاحقَتْ أنفاسي وأنا لا أصدق الخلاص أخيرًا، نظرت حولي بقلقٍ متوقع أن يهب شيء ما لقتلي بين اللحظة والأخرى. لكنَّ شيئًا من هذا لم يحدث، بل استمر الرنين لحظاتٍ قبل أن يرتفع الصوت الخشن من الجهة الأخرى مجيبًا اتصالي.

أردتُ أن أصرخ. أن أقفز بمكاني. لكن تمالكت نفسي وأنا أصيح طالبًا النجدة، خرجت كلماتي ملتاعة وغير مترابطة؛ فحاول الشخص بالجهة الأخرى تهدئتي. أدركت أنه يسمعني.. يسمعني فعلاً.

عاودت الصياح من جديدٍ به ليأتي ويخرجني من هنا، يبدو أنه فهم كلماتي؛ لأنه سألني عن العنوان فأجبته وقلبي يتواثب، كدت أكمل كلامي لكن صوتًا جافًا جاء ليقول:

- لو كنت مكانك ما فعلت هذا.

وثبت من مكاني ناظرًا إلى حيث مصدر الصوت، اكتشفت أنه هذه المرة ليس آتيًا من الهاتف لكنه من خلفي، تحديدًا من أمام الجدار المواجه لي، ولأكون أكثر دقة؛ من شابٍ وسيمٍ الملامح يجلس بوهن مستندًا إلى الجدار الداكن خلفه وقد فردَ ساقيه أمامه.

اشتدت قبضتي على الهاتف وأنا أتراجع مستعدًا للركض، بصعوبة أدركت أن الاتصال انقطع، وبوهن أدركت أنني في مأزق جديد، الله فقط مَن يعلم ما سأواجه هذه المرة.

كان عزائي الوحيد هذه المرة أن هناك مَن هو قادمٌ لإنقاذي، عليَّ الصمود قليلاً بعد، نظرت تُجاه الباب بلهفة ثم اختلست النظر تجاه الجالس، كان يبادلني النظر بتركيز فأدركت أن أي حركة سأُقدِم عليها لن تكون بصالحي؛ لذا لم يكن بيدي سوى القيام بالشيء الوحيد الذي قد يبقيه بعيدًا عني للفترة المقبلة: الإنصات.

حدقت به بنظرة متسائلة ليأتي صوته المخملي:

- هل شعرت يومًا بالوحدة؟

الحجرة العلوية..

«خربشات»

«يا لَهُ من يومٍ ممل»..

بطريقة ما لم أستطع التفكير سوى بهذه العبارة طوال النهار.. لي عذري بالتأكيد، لست أتذمر لمجرد التذمر، لكن النهار ببساطة كان حقًا مملاً.

أغلقت مشغل الأغاني بالسيارة وأنا أخطو خارجها، ناظرًا إلى المبنى الذي أسكن به، علمت أنني على وشك قضاء يومٍ مملٍ آخر.

لعلك الآن قد بدأت بالتأفف. لكن صدِّقني، لو كنت بمكاني أتحداك ألا تفكر مثلي، فعلت كل شيء، رأيت كل شيء، ذهبت إلى كل مكان يمكنني الذهاب إليه، والآن لم يبقَ لي سوى الجلوس وانتظار شيء ما لا أدري كنهه. لكنه آتٍ لا محالة.. ليزيل عني الملل أو ربما ليزيده، لا أدري حقًّا.. لكن لذة الانتظار تلك كانت الشيء الوحيد ذا المعنى بحياتي هذه الأيام.

أغلقت باب السيارة وتوجهت إلى شقتي بالدور الأول، لأفعل كل ما اعتدت أن أفعله يوميًّا: حمَّام دافئ ثم بعض الوقت أمام جهاز العرض الكبير أو ربما التقاط بعض الصور هنا وهناك.. لأخلد للنوم بعض الوقت.

وبالفعل قمتُ بتبديل ملابسي، أخذت حمَّامًا دافئًا. لكنني هذه المرة توجهت إلى حجرتي، ليس لدي رغبة في مشاهدة أي شيء الآن. ناظرًا إلى حاسوبي المحمول، اكتشفت أن ليس لدي الرغبة بمحادثة أحد حتى..

«ربما هو الاكتئاب؟».. هكذا حدثت نفسي وأنا أخلد للفراش دون رغبة حقيقية بالنوم.

أطفأت نور الحجرة واستلقيت هناك ناظرًا إلى السقف. الظلام يعمل كمرآة مجبرًا إياي على التفكير من جديدٍ في أمور حاولتُ تجاهلها.. لأكتشف ألا فائدة هناك.

أنا وحيدٌ، وحيدٌ تمامًا لو صح لي القول.. أمتلك الكثير من المعارف ربما والأصدقاء كذلك.. لكنني لا أنفك أشعر بالوحدة، بالفراغ.

حركت عيني ناظرًا عبر باب غرفتي الصغيرة المفتوح.. اللوحات المعلَّقة فوق الجدران تلك، كلها لي، كلها ملكي.. بل وربما هي الشيء الوحيد الذي بقي لي في عالم أصبحت أمقته.

«الوحدة والملل».. قلتها لنفسي بصوتٍ سمعته بالكاد ثم ضحكت.

«الوحدة والملل».. أحيانًا يعملان كعامل رائع يقود إلى نهاية أروع..

ألا وهي الانتحار، لكن بما أنني لا أملك ترفَ اختيار مثل هذه النهاية.. فسأظل إذًا أتجول بين جفنيّ الوحدة والملل إلى ما شاء الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عدة دقائق أخرى قضيتها متقلبًا بالفراش، لكن جميع محاولاتي للنوم باءت بالفشل.

الرياح تعوي بالخارج، هذه هي إحدى تلك الليالي القليلة في السنة التي تصيح بها الرياح، وكأننا بقلب الصحراء لا بمدينة عامرة.. لهذا تراني أندس أكثر بين الأغطية ناظرًا من جديد إلى الصالة المضاءة بالخارج. وعلى الرغم من أني ابتسمت قليلاً عندما رأيت إحدى تلك اللوحات التي صوَّرتها في وقتٍ سابقٍ هذا الأسبوع، فإنني عندها تذكرت النظرة على وجه عاملة الأستوديو.. الاحتراف، الموهبة..

لست مغرورًا، لكنني ذو ثقة كبيرة بنفسي في بعض الأحيان. ولحظات كهذه هي ما تمنح حياتي معنى.

أخرجت هاتفي المحمول لأنظر إلى الساعة، الواحدة بعد منتصف الليل، هذا يعني أنني حتى لو رغبت بالنهوض لن أجد شيئًا لفعله.. لذا لم أجد مفرًا من البقاء بالفراش منتظرًا، حتى بدأت لذة النعاس تتسرب إليَّ على استحياء.

عندها سعت الصوت لأول مرة هذه الليلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على الرغم من أني فتحت عيني، أصغيت السمع قليلاً، لكن بدا وكأنني أتوهم؛ لذلك قررت العودة للنوم.

يعاود عقلي التفكير بكثيرٍ من الأشياء التي قد تخلق الأحلام حاملة إياي أخيرًا إلى عالم النوم الهادئ عندما سعت الصوت من جديدٍ.

للمرة الثانية أبعدت الأغطية قليلاً مصغيًا السمع، لكن الصوت لم يختفِ هذه المرة، كان ضعيفًا للغاية لكنه ملحوظ.. هناك شيء ما يتنفس بالحجرة.

بالطبع دفعني هذا للجلوس بالفراش وقد توقف عقلي عن العمل للحظاتٍ.. فتحت عيني على اتساعهما وكأن هذا سيمنحني سمعًا أفضل.. لكن لا شيء، لا صوت بالحجرة شِبه المظلمة.

دفعت نفسي للضحك قليلاً.. ماذا بك؟ هل بدأت تهلوس أخيرًا؟ لكن وعلى الرغم من سخريتي لم أستطع إنكار أن شيئًا ما اهتزَّ داخلي.

ما الذي دفعني إلى معاودة الاستلقاء وسحب الأغطية حتى عنقي مُقرِّرًا تجاهل ما حدثَ للتو؟ لا أدري.. أظن أنني كنت أعاند نفسي لا أكثر.. فعندما تملك من العمر 23 عامًا يصبح الاعتراف بالخوف كالاعتراف بالجبن.. وبطبيعة الحال لا يمكنني تقبُّل مثل هذا الشعور؛ لذلك يتحول تلقائيًّا إلى عناد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مغمضًا عيني مرة أخرى تذكرت أحد المواقف التي مرت بي من قبل..

«هل أنا معدوم الإحساس؟».. هكذا سألتها. وببساطة أجابت:

«نعم».. بالتأكيد قالتها مازحة ولم يكن الموقف يستحق بالطبع؛ لذلك ضحكنا كثيرًا حينها.. لكنني لم أنسَ هذه العبارة قط لسببٍ ما، ولم أدرِ لم استعدت ذِكرها الآن.

«هنيئًا لك.. ثبت أنني معدوم الإحساس حقًّا».. قلتُها لنفسي وأنا أتأهب للغياب بالنوم مرة أخرى، أصوات تعلو من حولي، لم يكن صفير الرياح خلال عبورها من بين مصرعي النافدة آخرها.

لكنني تجاهلت، ولأنني تجاهلت تمكنت بمعجزةٍ ما من الغياب بالنوم.

في هذه اللحظة ظهر الصوت الثاني.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في البداية ظننتني أتوهم، لكن الأوهام – مهما كانت – تظَلّ أوهامًا، لا يمكنها أن تحمل أنفاسًا ساخنة على مؤخرة عنقك.

منتزعًا نفسي من غياهب النوم استدرت بالفراش فجأة، لا شيء كان هناك سوى ضربات قلبي المتتابعة، لكن على الرغم من أنه بدأ جانب طفيف من الثقة بالتحطم داخلي فإن هناك شيئًا ما خطأ، شيئًا ما ليس على ما يرام بالحجرة.

لكنني لم أنهض، لم أغادر الفراش قَطّ، بل غبت بين الوسائد الدافئة وأنا أحاول إبعاد أكوام الأفكار السوداء التي تراكمت بعقلي حينها، نظري كان مثبتًا تجاه الضوء المقبِل من الخارج وكأنني أحاول التماس الأمان منه، كل شيءٍ هادئٌ حولي، كل شيء بمكانه، ولا شيءَ غريبٌ يجول المنزل إن كانت مثل هذه الفكرة الساذجة قد مرت بعقلك الآن.. لا، لم أرَ شيئًا مختلفًا.

لحظة مرت كالدهر قبل أن أستدير قابضًا على طرف الغطاء وقد قررت.. ماذا قررت؟ لا أذكر.. فقد ارتفع صوتٌ غريبٌ بالحجرة فجائيًّا..

شيء ما يتنهد!

لم يكن هناك شك هذه المرة، فالصوت كان واضحًا وضوح السطور التي تقرأها الآن.

انتفضت جالسًا وقد انقطع حبل أفكاري، أجول بنظري عبر الحجرة وقد تحوَّلَت ضربات قلبي إلى انتفاضاتٍ متتابعة.. تتسع حدقتا عينيّ أكثر لتحتوي المزيد من تفاصيل الحجرة، لا يبدو شيء مختلفًا سوى شيء ما تنهَّد مرة أخرى!!

في هذه اللحظة قررت أنني اكتفيت، فليذهب النوم للجحيم.. أبعدت الغطاء ناظرًا للأرض جوار فراشي تلقائيًّا وأنا أنهض.. لتنتصب جميع شعيرات جسدي فجأة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فراء.. جوار سريري – تفترش الأرض الخشبية الداكنة – كومة من الفراء أسود اللون التي بدت -أسفل الأضواء الخافتة- وكأنها تتحرك حركة رتيبة إلى أعلى، إلى أسفل.. تتنفس!!

لم أملك في هذه اللحظة سوى أنني تسمرت بمكاني شاعرًا بالذعر البارد يزحف فوق عمودي الفقري، ثم ومن دون صوتٍ يُذكَر تراجعت للخلف لأغوص بالفراش جاذبًا الغطاء حتى آخر شعره برأسي.

لم أقوَ على التفكير.. ناهيك عن النهوض، ما زال عقلي يحاول الاستيعاب.. ما زال... قطعت أفكاري تلك الخربشات، ارتجفت وأنا أتخيل هذا الشيء – أيًّا ما كان – يخمش الأرض أسفل فراشي.

أغمضت عيني قابضًا على إحدى الوسائد جواري حتى استحالت أصابعي إلى كتلٍ صفراء، وبعقلي المُرهَق بدأت عشرات الذكريات الطفولية تتدافع، الخوف البدائي من الكيان الغامض المسمى

«ظلامًا»، الخوف الذي دفعني كطفلٍ إلى سَحب الغطاء حتى رأسي بل ودسه أسفل قدميَّ حتى لا يستطيع شيءٌ الوصولَ إليَّ.. الخوف ذاته الذي دفعني الآن لفعل الشيء ذاته .

ربما كان الخيار الأرجح هو أن أغادر الحجرة، لكنني للأسف لم أكن أقوى على اتخاذ مثل هذا الخيار، ماذا إن رآني؟ ماذا إن شعرَ بي؟ ماذا إن لم أكن سريعًا بما يكفي؟ وللمرة الأولى أدرك أنني لست «معدوم الإحساس» إلى هذه الدرجة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

امتدَّ صوت الخربشات أكثر، لكنه هذه المرة جاء مختلطًا بعويل الرياح بالخارج.. ليبدو من مكاني هذا وكأنه ينتشر بجميع الأرجاء حولي.

أغمضت عيني علني أستطيع انتزاع نفسي مما يحدث، لكنني أدرك أن هذا ليس حلما.. وهذه هي المشكلة.. بأحلامي أنتزع نفسي للواقع ما إن تسوء الأمور، لكن ماذا من الواقع الآن؟ سأنتزع نفسي إلى أين؟

الظلام يجثم على نفسي أكثر أسفل الغطاء الثقيل، والهواء النقي يقل.. لكنني لا أمتلك الشجاعة الكافية لرفع الغطاء، رأيت في هذه اللحظات أعينَ حمراء تتطلع إليَّ من الأعلى، رأيت يدًا متحللة تمتد عبر الغطاء، رأيتُ ما بين الجاثوم والجاثوم.. رأيت هذا كله بعين عقلي، مخيلتي تعمل كأفضل ما يكون، خالقة العشرات من الأشباح، المئات من الوحوش، والآلاف من طرقٍ حملت بيعها نهايتي المأساوية.. هذا ما أجبرني على الاستلقاء دون حراك.. وضعي الآن لا يختلف كثيرًا عن الراقدين بتابوتٍ خشبيٍّ أسفل التراب.. فقط هم يمتلكون ترفًا لا أمتلكه، أنا في الوقت الحالي: فقدان الشعور.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تخدرت يدي فحاولت تحريكها قليلاً لتصطدم بشيءٍ ما صلد بجواري، تملَّكَني الذعر لأقل من ثانية قبل أن أستوعب أن هذا فقط.. هاتفي، وبالتالي قبضت عليه كمن وجدَ طوق النجاة، لم يكن بإمكاني الاتصال بأحدٍ بالطبع.. فبعيدًا عن احتمالية أن يصل صوتي لهذا الشيء بالحجرة، كيف سأبدو إن هاتفت أحدهم طالبًا المساعدة؛ لأن «هناك فراء أسود بالحجرة يتنفس»، حتى إن فعلت، هل حقًّا سيأتي أحدٌ إليَّ في هذه الساعة من الليل؟ في هذه اللحظات اختلط الذعر داخلي بشعورٍ عميقٍ، بالوحدة.

هي لعنتي التي ما تلبث إلا أن تظهر دائمًا بأبشع صورها؛ لهذا السبب اعتصرت هاتفي بين أصابعي ضاغطًا إياه إلى صدري، لم أرغب بمهاتفة أحد، بل أردت الشعور بأنني أمتلك شيئًا ما يحمل دفء العالم الخارجي.. أردت فقط الشعور بأنني لستُ وحدي.

لكن الشعور سرعان ما تلاشى عندما هوى ثقلٌ مريعٌ فوق جسدي أسفل الفراش .

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان يحمل أبعاد الجسد..

كان فوق الغطاء.. فوق جسدي..

كان غائبًا عن عيني وسط الظلام..

وكانت هذه هي القشة الأخيرة..

لا مزيد من الاختباء، بل لم أستطع الشعور بذاتي إلا وأنا أدفع الغطاء عني بيدٍ ترتج وأندفع من فوق الفراش، بقفزتين كنت أقف أرضًا، وبقفزة أخرى كنت خارج الحجرة تمامًا.

عقلي الآن كان يعمل وِفقًا لقوانينه الخاصة، دافعًا إياي إلى الاستدارة قابضًا على باب الحجرة لإغلاقه.. لكنني - وبما تبقى لديّ من إرادة حرة - وقفت مكاني ناظرًا إلى الداخل عبر ما عكسَتْه الأضواء المقبلة من خلفي.. إلى الجسد الثقيل الذي كان يرقد فوق فراشي والذي لم يكن سوى مصباح السقف وقد هوى متقطعة أسلاكه.. ثم إلى كومة الفراء المتنفسة بجانب الفراش، التي بالطبع لم تكن سوى معطفي الأسود فوق كومة من الملابس المهملة.

ذُهلت، ثم تسمرت مكاني، ثم تسلَّل الفهم بطيئًا إلى عقلي، ثم بدأ جسدي بالاسترخاء أسفل شعورٍ زائفٍ بالخلاص..

كان هذا بالطبع قبل أن أشعر بالأنفاس الساخنة تخرب عنقي من الخلف مصحوبة بتنهيدة عميقة.. وبالطبع قبل أن ستدير كان عقلي يصرخ في ذعرٍ:

«أيها الأحمق.. الملابس والمصباح.. وماذا عن الخربشات؟»..

انتهى من الكلام وساد الصمت أخيرًا إلا من دقات ساعة بمكانٍ ما بالحجرة وحفيف غريب لحشرة أو كائن زاحف ظهر ثم توارى بأحد الأركان التي فشل الضوء الواهن بتبديد ظُلمتها، كنت أقف بمكاني دون حديثٍ، ما زالت يدي قابضة على الهاتف النقال وأنا أنظر لمحدِّثي دون أن أحتاج هذه المرة لإجبار عقلي على الانتباه، تحركت قليلاً متفاديًا إحدى البقع الدامية لأجد نفسي أتساءل:

- ماذا عن الخربشات؟

ظلَّ يرمقني بصمتٍ للحظةٍ ثم التفتَ بنظره بأرجاء الحجرة مشيرًا بيده لمعالمها وعاد لينظر إليَّ من جديدٍ وهو يقول:

- لذا قلت سابقًا.. لو كنت مكانك لما فعلت هذا.

عاد الصمت ليسود وقد أثارت جملته ريبتي فغزَتْ رجفةٌ صغيرة أصابعي الملتفة حول الهاتف وتتكرت قول ليلى سابقًا: «لأن هذا قدرُه، هو يفعل الشيء الوحيد الذي بإمكانه فعله».. أكان هذا هو الحال هنا أيضًا؟ هو فقط ينتظر قدره؟ نظرت نحو باب الخروج بشكٍّ فسمعت ضحكة خافتة صدرَتْ منه؛ لذا عاودت النظر له، كان يرمقني باستخفافٍ وهو يعقد ذراعيه وقد بدا وكأنه قرأ أفكاري للتو:

- هل كنت تظن أنني أهدِّدك؟

لم أردّ، امتقع وجهي وأنا أقدِّم خطوة وأؤخر أخرى محاولاً ألا أتخيل ما قد يحدث إن بقيت هنا حتى الدقائق القليلة المقبلة، اشتدت قبضتي على الهاتف بأملٍ منتظرًا أن يأتي صوت، أي صوت من

الأسفل يدل على الخلاص، كانت النهاية قريبة جدًا وشعرت بهذا، فات الكثير وما بقي سوى القليل.. القليل جدًّا.

- أنت حقًّا تشعر بالدهشة الآن.. صحيح؟ أنت لا تدَّعي!!

أبعدت عيني عن باب الخروج ناظرًا إليه بتعجُّب وقد فاتني معنى جملته، وجدته يرمقني بدهشة حقيقية لا بسخرية، فما ملكت إلا أن سألته:

- ما الذي تعنيه؟!

نظرات الدهشة على وجهه لم تتغير أبدًا، بل على العكس، اتسعت عيناه أكثر وهو يقول:

- محمود!! أنت سمعت هذه القصة من قبل!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن

ليس مخيفًا على الإطلاق أن تجد غريبًا يعرف اسمك، المخيف هو أن يكون هذا الغريب ميتًا؛ لذا اعذرني إن بدت ملامح وجهي متجمدةً خاويةً من أي لونٍ حين سمعت اسمي ينطلق من بين شفتيه.

- أكمِل طريقك يا محمود.

قالها قبل أن أجد فرصة للنطق، انتظرت أن يضيف شيئًا ما، لكنه استمر في النظر إليَّ فقط وقد تحولت ملامح وجهه من الدهشة إلى الفضول، بعقلي مرت ومضات لما حدث بالأسفل مع ليلى وخشيت أن أواجه الموقف ذاته، لكن الشاب لم ينهض ولم يكلف نفسه عناء الشرح، بل استرخى أكثر منتزعًا نظراته عني وكأنني غير موجود من الأساس.

سواء أكان هذا بقصد إرعابي أم كان تصرفًا تلقائيًّا غير مفهوم، توقفت عن التحديق به ببلاهة وأكملت طريقي، أحتاج للتفكر فيما قال، لكن ليس هنا، ليس بمكان سيتحول إلى مجزرة بعد قليل لو كان ما توقعته صحيحًا، بالتالي اتخذت طريقي لا لاتجاه الأعلى هذه المرة بل عائدًا من حيث أتيتُ نحو الأسفل، لم أنسَ المكالمة التي أجريتها وبالتالي تخليت عن خطتي للوصول إلى السطح فالغوث كان مقبلاً أخيرًا.

- احترس من أيمن.

قالها الشاب بصوتٍ عالٍ. فالتفت دون فهم، لكنه كان قد أبعد نظره عني فاستدرت لأكمل طريقي، ما إن خطوت أولى خطواتي خارج الحجرة حتى عاد عقلي للعمل.

هناك من يُدعى أيمن، هذا مفهوم، كيف لم أقابله في طريقي إلى الأعلى؟ هذا سِرٌّ لا يعلمه سوى الله، لكن عليَّ أن أحترس منه، لماذا؟ هذا سِرٌّ آخر لا أظن سأعرفه إلا إن واجهته فعلاً، دارت بعقلي هواجسُ أخرى عن الشاب الراقد بالحجرة بالأعلى، كيف كان يعرف اسمي؟ ما الذي قصده بقوله: «محمود!! أنت سمعت هذه القصة من قبل؟!!» حين قالها كان يعنيها، ملامح وجهه دلت على هذا، شيء آخر دون تفسير ينضم للقائمة، لكن من يهتم؟ سأخرج ملقيًا بجميع ما رأيت وما سمعت خلف ظهري، على الرغم من أني واثقٌ من أنَّ ما حدث هنا سيزور كوابيسي مرارًا..

لكن الكوابيس مهما ساءت تظل مجرد كوابيس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اهتزَّ الضوء من جديد فوق رأسي، فرفعت نظري أستطلع وقد توقفت، لكنه عاد ليثبت مرة أخرى فأكملت طريقي، كنت الآن أمام الجدار الذي حوى شقة الفتاتين قبل أن يتحول إلى كتلة مسمطة يفعمها العطن.

على الرغم من أنه سَرَت بجسدي رجفة وأنا أتذكَّر قصة ليلى، كيف كنت أحمق بالقدر الكافي لأظن أنها تساعدني؟ خدعني مظهرها البريء فلم أدرك أنَّ خلف هاتين العينين اللامعتين ترقد أفعى سامة قتلت صديقتيها بدافع الغضب فقط، هل كنت أتخيل أم أنني سمعت نحيبًا مكتومًا من خلف الجدران؟

كتمت أنفاسي وأكملت طريقي بخطوات عاجلة، على الرغم من أن المكان كان فارغًا فإن الذكرى أكسبَتْه حضورًا مخيفًا، لم أتوقف لأستعيد قدرتي على التنفس إلا حين غاب الطابق عن نظري، لكنَّ شيئًا آخر كان ينتظرني بالطابق الذي يليه.. كيف لي أن أنسى؟

بتردُّد هبطت درجتين أُخريَيْن وقد توقعت أن أراه جالسًا حيث كان، لكن السلم المغطى بالظلال كان فارغًا، باب الشقة كذلك كان مغلقًا؛ فعاودت السير دون أن أرفع عيني عن الخشب المتآكل راسمًا بعقلي صورة لما يرقد خلفه، لم ألحظ بِركة المياه المتسربة من أسفل الباب إلا حين غاصت بها قدماي فعلاً.

دعاني هذا للتوقف ثواني وقد استعدت بعقلي ذكرى الشاب ذي الثياب الممزقة. مي الميتة بالحمام والرسالة التي لم تصله أبدًا، وجدت نفسي أتساءل: كم مرة سار بها هذا الرجل إلى قدره ليموت مرة تلو الأخرى؟ هل كان يشعر بالألم؟ هل يتذكر بعد أن ينتهي الأمر؟ سرَت بجسدي قشعريرة فقررت إكمال الطريق قبل أن يقع السوء.

اتخذت طريقي للهبوط تجاه الشقة الأخيرة والأولى، كما توقعت كانت مغلقةً هي الأخرى، هذه المرة لم يعترني الخوف بل الشفقة، ترى كم مضى من الوقت وهي تقبع هنا بين التراب والبرد لا تحيط بها سوى ذكرى موتها؟ تذكرت الشاب الذي بدا غاضبًا حين عجزت عن تصديقه. من هو؟ وإلى أين ذهب؟

نظرت إلى السقف في حركة تلقائية لأتذكر أنني لم أكمل الطريق إلى الأعلى، ما زالت هناك أسرار وموتى بحجرات داخل طوابق فارغة، بعضهم سلَّم بالأمر الواقع وجلس حيث هو ينتظر، بينما البعض الآخر يتجول بين الأدوار.

توقفت عن السير غارقًا في التفكير.

البيوت أسرار، خلف كل باب تقبع حكاية، بعضها قد يكون جيدًا، لكن البعض الآخر مؤلمًا، أتذكر حين كنت أجلس جوار عم طه أراقب النوافذ المغلقة لأتخيل ما يمكن أن أراه يدور خلفها، كَم بدا هذا الوقت بعيدًا، عم طه؟ أتراه يحتل إحدى الشقق المُغلقَة بالطوابق العلوية هنا؟ لا يسعني سوى أن أتساءل.

أكملت طريقي تجاه الأسفل وأنا أفكر.

كنت بارعًا دائمًا في اختلاق القصص وتصديقها، في النظر للنوافذ المغلقة وتخيُّل الحياة الدائرة خلف كل منها، وجدت المتعة في هذا، لكن حين عبرت من خانة المراقب إلى خانة المشارك بدأت متعتي بالتحول إلى رعب، وببطء بدأت أفهم لمَ كان عم طه يكتفي بالمراقبة من بعيدٍ.

هل رأى عم طه ما رأيت؟ أول إجابة خطرت بذهني هي النفي، لم يكن ليبقى أمام المنزل حارسًا لو كان يعرف ما عرفته أنا، لكن ماذا لو كان قد فعلَ؟ ألهذا طلب إليَّ الرحيل؟

وصلت أخيرًا إلى الباب الذي عبرته للدخول إلى هنا، كان مفتوحًا كما تركته؛ لذا عبرت بشرود وعقلي ما زال هائما في أفكار لا أدري من أين أتت.

لِمَ أنا خائف؟ ألأنّ سكان المكان موتى أم لأنني عاجز عن الفهم؟ مم أنا خائف؟ من أبواب مغلقة أو مما يقبع خلفها؟

وجد الهدوء طريقه إلى نفسي بعد رعبي السابق، ربما لأنني كنت على وشك الخروج؛ لذا واصلت تقدُّمي دون أن تسرع خطواتي بالممر المظلم، شيءٌ ما داخلي أخبرَني أنني لن أجد العجوزَ الغريب الذي واجهته بالبداية، الأمل الصافي وجد طريقه أخيرًا ليحتل قلبي.

على الرغم من أنني ضحكت من تفكيري السابق. هكذا نحن البشر، لا نبدأ بالتفكير في إبعاد المشكلة إلا عندما توشك على الانتهاء أو تنتهي فعلاً. طالما نحن بها لن نفكر إلا في طريق الخلاص.

كنت غارقًا في أفكاري هذه حتى لمحت باب المنزل من زاوية الممر، ارتحت لرؤية الزجاج الداكن بين أخشاب الباب المتآكلة، سرتني رؤية المرآة الملطخة جوار الجدار وحرارة مصباح الكيروسين الصغير -على الرغم من أنه لا تفسير لدي عن كيفية عودته إلى موقعه السابق- كنت أشعر بالسعادة لرؤيتي المكان الذي بدأ به كل شيء والذي سينتهي به كل شيء.

وددت لو أقول إن هذا الشعور استمرَّ، وإنني أكملت طريقي عابرًا الباب إلى الشارع الرحب بالخارج متناسيًا هذا البيت المشئوم إلى الأبد.

لكن للأسف.. ليس هذا ما حدث.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع

- طه!!

صحت متسع العينين حين رأيت الرجل العجوز بملابسه القديمة يتقدَّم عبر باب الخروج مستندًا إلى عكازه وبيده الأخرى حمل مصباحًا مُشابهًا لأخيه فوق المنضدة بالمدخل.

كاد الذعر يتمكن منِّي، لكنني لحظتها أدركت أنه لا يراني، تصرفاته بدت أقرب إلى التردد منها إلى الإقدام؛ لذا تسمَّرت مكاني أنظر نحوه بينما يغلق الباب خلفه متقدمًا نحو الداخل، إلى حيث أقف.

كانت خطواته سريعة بالقدر الني سمحت له بها سِنُّه، لكنه وصل إليَّ قبل أن أملك الوقت الكافي للتراجع، وسرعان ما كان يتخطاني بالمعنى الحرفي للكلمة.

صرخت حين عبر الجسد العجوز من خلالي متجهًا إلى الحجرة الأولى بالممر ليختفي عبر الباب داخلها، أمضيت بعض الوقت أحدق بالفراغ وألهث، كان واحدًا منهم طوال هذا الوقت!! كان ميتًا ورافقته لأيام دون أن أدري، شعرت بالنفور، النفور والجذع.

أين ذهبت أفكاري التي حثتني على عدم الخوف منهم؟ أين ذهبت آرائي التي بنيتها في الدقائق السابقة؟ كلها تلاشت كما تتلاشى فقاعات الصابون وسرَتْ رجفة بجسدي أدت إلى انتصاب شعيراتي بالكامل، بينما التفت محملقًا بالمكان الذي اختفى به للتوّ، كدت أركض هاربًا، لكنني سمعت الهمسات من جديدٍ.

الهمسات ذاتها التي سمعتها بوقت سابق هذه الليلة. كان عليَّ في هذه اللحظة أن أختار بين الهرب أو البقاء..

بين النجاة أو الفهم..

لا أدري ما الدافع الذي حرَّكَني يومها، أصبحت لا أذكر الآن كيف بنيت قراري.

جل ما أذكره هو أنني استدرت لأعود إلى حيث اختفى عم طه منذ لحظات..

إلى الغرفة المظلمة بالممر.

الحجرة بالممر..

«انعكاسات»

عندما رأيت هند للمرة الأولى لم تكن لدي فكرة عما تعانيه؛ فأنا مُحلِّلٌ نفسيٌّ ولست ساحرًا. لم أكن أعلم سوى أنها مريضة نساء كسائر من يأتيني طلبًا للعلاج، ما مشكلتها بالضبط؟ لا فكرة لدي، أنا لم أتحدث معها. بل تم الحجز تليفونيًّا مع والديها بعد أيام من التردد، لكنني كنت أدرك أننا ببلدٍ لا يعترف بالطب النفسي بل ويعتبر من يمارسه مجنونًا شأنه شَأن مرضاه؛ لذا كان من الواضح أن حالة الفتاة سيئة بما يكفي لدفع والديها إلى كسر العادات المتبعة وجلبها إلى هنا.

شاحبة للغاية، هادئة جدًا، هكذا رأيتها حين خطت للمرة الأولى داخل مكتبي الأبيض الأنيق، وكقطة صغيرة تكومت فوق أحد المقاعد بمواجهتي ناظرة إلى الأرض.

كان النهار ببدايته، هند كانت أول مريضة تأتيني اليوم، وبالتالي لم يكن الإرهاق المعتاد قد نال منِّي بَعدُ، ما زلت نشيطًا رائق المزاج كعادتي.. لا توجد حجوزات كثيرة اليوم كحال كل يوم، مجرد حالتين تأتيان بعد ساعة ونصف الساعة من الآن، هكذا جلست هنا أرمق الفتاة الصامتة منتظرًا أن تبدأ الحديث دون أن أحاول الضغط عليها لتتكلم.

لكن ولأنني أعشق مهنتي - تلقائيًا - وجدتني أنظر لها بفضول محاولاً استنتاج ما يمكنني من معلومات عنها، طويلة القامة، رشيقة. ثوبها الأزرق الأنيق دل على أنها من عائلة ميسورة الحال بشكلٍ كبير، ربما هي في التاسعة عشرة أو العشرين من العمر، ليست شخصًا خجولاً، لكنها بالتأكيد لم تكن تشعر بالراحة بصحبة شخص غريب، خاصة لو كان هذا الغريب طبيبًا نفسيًا، بقيت ناظرة إلى الأرض بعينين داكنتين تجمهرت أسفلهما الهالات السوداء، ومن الحركة المتوترة لأصابعها ذات الطلاء علمت أنها تفكر فيما ستقول عندما تبدأ حديثها المنتظر ودون جهدٍ كبيرٍ أدركت أنها ستكذب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«أنا لست مغرورة، لكنني دومًا أجد صعوبة في التأقلم مع قواعد العالم الأنثوي المتشعبة، مجاملات، متابعات لا فائدة منها لمواضيع لا طائل من ورائها، كما أنني لا أنتمي لتلك النوعية من الفتيات اللاتي يراقبن تحركات الآخرين بأعين ثاقبة لتنتقد هذه وتمدح هذه، جلسات النميمة تلك لا تستهويني؛ لذا بطبيعة الحال أصبحت شبه منعزلة عن عالم الفتيات المعقد ذاك، ربما اكتفيت برفيقتين أو ما شابه من باب الوجاهة الاجتماعية لا أكثر، لكنني لم أثق بأحدٍ، وبالتالي لم أقترب من أحدٍ، ولأنني لم أقترب من أحدٍ بدأت صديقة واحدة فقط بالتبلور داخل عالمي المنغلق، تلك الأمور تأتي معًا كعبوة متكاملة، المشكلة الوحيدة أن تلك الصديقة كانت.. أنا».

توقفت هند عن الكلام لتأخذ نفسًا عميقًا ثم تابعت:

«يقول الأطباء: إن الانعزال عن الآخرين هو بداية الطريق إلى الاكتئاب، المرض، فالانتحار.. أعرف ذلك جيدًا. لكنني وجدت بالانعزال راحة هائلة من عالم امتلأ بالكذب، النفاق، والأقنعة. لم أعانِ الاكتئاب، بل على العكس بقيت شاعرة بالراحة والسعادة، والداي بطبيعة الحال لم يستسيغا تحوُّل ابنتهما الوحيدة إلى نوعٍ من الصبار الاجتماعي، وجرت محاولات كثيرة منهما لإعادتي إلى عالم ثاني أكسيد الكربون مرةً أخرى. أكون كاذبة إن قلت إنني لم أحاول.. حاولت لكن كل محاولة لم تسفر إلا عن نفوري أكثر من واقعٍ متقرح إلى عالمي الخاص النظيف.. في النهاية كف والداي عن إجباري وتركاني أنعم بالهدوء، فقط كانا يعودان للمحاولة من حينٍ إلى آخر. لكن النتيجة ظلت كما هي».

انتهت من الكلام وصمتت تمامًا رافعة نظرها نحوي للمرة الأولى هذا اليوم، طوقت تجاعيد الدهشة -يصحبها توتر خفيف- وجهها حين وجدتني أبتسم بهدوءٍ.

- أكملي.

قلتها وأنا أعقد يدي أسفل ذقني مستندًا إلى المكتب.

- ولم تظن أن لدي المزيد لأحكيه؟

قالتها بشيءٍ من الاستنكار فاتسعت ابتسامتي وأنا أجيب ببساطة:

- لأننا بمصر، لو كان الأمر يقتصر على مشكلة اكتئاب لاصطحبك والداك إلى أكبر قدر ممكن من الأطباء، الشيوخ، وحتى إلى الدجالين، أي شيء ما عدا طبيب نفسي.. على الرغم من ذلك أنت هنا.

أنهيت كلامي فبقيت ملامح وجهها جامدة ثم ابتسمت بدورها قليلاً، اعتدلت بالجلوس ودون تعبير تابعت الحديث:

«سميتها ناهد، ناهد صديقتي الخيالية التي ابتكرتها والتي لم تعد خيالية إلى هذه الدرجة، أصبح وجودها أساسيًّا بحياتي اليومية، ألجأ إليها في جميع قراراتي ولو كانت بسيطة كاختيار لون ملابسي، أو أصناف طعامي، صببت فوق رأسها جام مشاكلي وحدَّثتها بما لم أجرؤ على البوح به حتى لعائلتي.

أجل.. شكلت ناهد حونا مُهِمًّا بحياتي، ولأني من صنعها كنت أعلم أنها تشبهي بكل شيء؛ لذلك أقنعت نفسي بأن حكمها سيكون صحيحًا أيًّا ما كان، وكيف لا وهي أنا حرفيًّا؟ لم تكن ناهد تشكو، لم تكن تعترض، كانت تستمع وحسب؛ لهذا شعرت براحة هائلة معها، بناء عليه ازددت اقترابًا منها، ثقة بها، واقتناعًا تامًّا بأنها حقيقية.

كان ذلك حتى دارت برأسي فكرة مجنونة بعض الشيء»..

توقفت هند عن الكلام للحظة مراقبة انفعالاتي ثم أكملت بصوت منخفض قليلاً:

«إن كانت رفيقتي جزءًا لا يتجزأ من حياتي، إن كانت جانبًا مهمًّا شكَّل شخصيتي، فلمَ إذا لا أحاول رؤيتها؟»..

- رؤيتها؟!

قلتها بتعجب وقد اعتدلت بالجلوس مندهشًا بعض الشيء، فأومأت هند بهدوءٍ، ولأنني لم أرغب بمقاطعتها بقيت صامتًا دون تعليق وأشرت لها بالمتابعة:

«في تلك الفترة حصل والدي على عملٍ جديدٍ، ومنزل جديد تباعًا، بالتالي غرقت العائلة بدوامة من المشاغل التي تسببها إجراءات الانتقال، العمال، التجهيزات وخلافه، وجاءت أوقات كان المنزل يخلو إلا مني ومن أخي الأصغر سنًّا.

لم أكن أحتاج إلى فرصة مناسبة لتنفيذ ما كان يدور بعقلي، لكن فراغ المنزل كان يعفيني من التساؤلات والظنون؛ لذلك استغللت غياب أهل المنزل الدائم لتنفيذ ما رغبت به طوال تلك الفترة.. رؤية ناهد».

- وتمكنت من رؤيتها؟

قلتها دون تعبير مُحدَّدٍ فأومأت الفتاة من جديدٍ، تساءلت عن الكيفية فأتى ردُّها ببساطة شديدة:

«عبر المرآة بالطبع».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بدأ تشخيصي لحالة هند بالتبلور نتيجة لكلماتها، لم أكن أحتاج إلى المزيد من التفسير، فحالتها كانت واضحة وضوح الشمس، لكنني لسببٍ ما رغبت في سماع باقي قصتها؛ لذا حثثتها أن تكمل، لكنها هذه المرة بقيت صامتة.

من جديد ألححت بطلبي، لكنها أبت إكمال قصتها متفادية النظر نحوي، وبصوتها الناعم أعلنت أن هذا كل شيء.

بحكم وظيفتي لجأت إلى التحايُل بطريقة أو بأخرى لانتزاع الكلمات من هند، بداخلي علمت أن هناك المزيد وأن الفتاة لم تتوقف عن الكلام لأن قصتها انتهت، بل لسببٍ آخر ربما يكون لُبّ المشكلة.. لكن ولمرة أخرى جاء رفضها قاطعًا.

وبالتالي لم أتمكن إلا من ابتلاع فضولي والتوقف عن الضغط عليها متخذًا وضع الطبيب المخضرم لأبدأ في وضع تفسيرات لحالتها وربما طريقة ما لعلاج مشكلتها.

بصراحة وهدوءٍ بدأت الحديث:

«هند.. أنتِ منعزلة تمامًا من الآخرين، وهذا خطأ، أحيانًا تقابلنا جميعًا أوقاتٌ نرى بها العالم مكانًا أسود لا علاج له إلا القصف بالنيران، لكننا جزءٌ منه، وعلينا التعامل مع هذا، تجاهُل الآخرين والانعزال ليسا حلًّا يا هند.. كما قلت ببداية كلامك لن يؤدي هذا إلا إلى الاكتئاب فالميول الانتحارية، قد لا تعانينها الآن، لكنها ستأتي عاجلاً أم آجلاً، عندها لن ينفعك الندم بشيءٍ، كما أن هناك السيئ هناك الجيد، فقط ابحثي عنه ولا تتقوقعي حول عالمك الخاص بهذه الطريقة..

أنت اتخذت ناهد كرفيقة وحيدة لك، هذا جيد لأنك تجدين من تحدثينه بما يجول بنفسك، لكن مشكلة ناهد هي أنها نسخة طِبق الأصل منك، وبالتالي حكم ناهد أيًّا ما كان لن يُقدِّم أو يؤخِّر، هي فقط كالعقل الآخر لك، تسكبين من مشاكلك إلى نسخة أخرى منك كالساعة الرملية، لا فرار لحبَّات الرمال يا هند، ولا يمكن لما بداخلك أن يعيش بحجرة من زجاج للأبد.. ناهد ستظل مستمعًا فقط، الإنسان يحتاج مَن يستمع ويشارك لا من يراقب بصمتٍ....»..

عند هذه اللحظة قاطعتني هند بصوتٍ مُرتجفٍ متفادية النظر إليَّ:

- هذه هي المشكلة...

توقفت عن الكلام محدقًا نحوها دون فَهمٍ؛ فرفعت رأسها نحوي، على وجهها ارتسمت علامات القلق عندما قالت:

- ناهد لم تعد مستمعًا فقط...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«كان ذلك منذ نحو ثلاثة أسابيع، وكنت حينها قد اعتدت تمامًا الحديث إلى ناهد عبر المرآة الكبيرة بحجرة والدي حين يغيبان عن المنزل، فقط أدلف إلى الحجرة دون أن يشعر أحد وأظل قابعة أمام الزجاج العاكس لساعاتٍ أراقب صورتي الصافية محدثة إياها.

في البداية شعرت بالجنون، لكنني سرعان ما اعتدت مثل هذا الفعل، حتى إنني أصبحتُ أشتاق لها إذا مرَّ يومان أو ثلاثة دون أن أتمكن من الانفراد بالمرآة والحديث.

مرت تلك العادة بسلامٍ لأسبوع أو ما يزيد، حتى بدأ شيءٌ غريبٌ في الحدوث تدريجيًّا.

بداية. ظننتني أتوهم سماع أصوات ولم أعطِ لذلك بالاً، من وقتٍ لآخر يتعالى صفير بأذني فأعزو الموقف إلى الإرهاق، الملل، باختصار إلى أي شيءٍ سواء منطقي أو لا منطقي.

حتى تلك الليلة التي رقدت بها بحجرتي المظلمة بعد يومٍ طويلٍ مُرهِق، محاولة الحصول على قسط من الراحة بعد أن نام كُلُّ مَن بالمنزل.. حينها ارتفع الصوت الأنثوي واضحًا تمامًا بأذني هذه المرة.

انتفضت فزعةً ناظرة حولي، بينما ضربات قلبي تتواثب محاولة الخروج عبر حلقي، الصوت اختفى، لكن بأذني استمر طنينٌ بدأ يخفت شيئًا فشيئًا.

على الرغم من أن الحجرة كانت غارقة بالظلام فإنني لم أستطع استيضاح أيِّ شيءٍ غريبٍ بالمكان، وبالتالي عُدت أرقد في الفراش بتوجُّس مُردِّدة كل ما استطعت ترديده من أدعية، لم يظهر الصوت من جديد، لكنني لم أتمكن من النوم تلك الليلة.. كانت تلك المرة الأولى ولم تكن الأخيرة.

الأيام التالية كانت أسوأ أيام عهدتها حياتي.

منذ تلك الليلة والهمسات بأذني أصبحت اعتيادية، تأتي وتذهب من حينٍ إلى آخر، أحيانًا هي واضحة وأحيانًا مموَّهة، لكنها تظل غريبة مثيرة للقشعريرة، كلما بدأت بسماعها أنتفض وتبدأ البرودة بغزو جسدي، أتحدث بصوت عالٍ مع مَن جواري أو أرفع صوت أي جهاز إلكتروني قريب منِّي، محاولة التخلص منها، لكنها استمرت تهاجمني حين لا أتوقعها ولم تفلح أيٌّ من محاولاتي للتخلص منها، بل على العكس بدأ رعبي من الأصوات الغامضة بالازدياد، خاصةً أن الصوت الذي رافقني ذاك كان صوت أنثى.. ولأكون أكثر تحديدًا كان صوتي الخاص.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مضت فترة قبل أن يعود والداي إلى عادتهما في الغياب عن المنزل لتجهيز منزلنا الجديد، خلال هذه الفترة كنت قد تحولت إلى كتلة من الأعصاب المتحفزة، أقل كلمة تدفعني للشجار، أقل صوت مفاجئ يجعلني أقفز أمتارًا للخلف، فسَّرَها أبي بخللٍ ما بجسدي وفسَّرَتْها أمي بمَسٍّ شيطاني، أنا الوحيدة التي عرفت السبب الحقيقي، الأصوات لم تتوقف لحظة عن مهاجمتي، وما زاد الأمر سوءًا هو أنني بدأتُ أربط بينها وبين ناهد، لم أعد أجرؤ على النظر بالمرآة إلا صباحًا، تخليت تمامًا عن عادة الحديث عبر المرآة، وحاولت بشتى الطرق الاختلاط بآخرين تجنُّبًا لهذه المصيبة التي خلقَها عقلي.. ناهد.

أحيانًا كنتُ أنجح، وأحيانًا كانت تتغلب على عادة النظر للمرآة بطرف عيني - التي يعانيها الجميع - لم أكن أرى شيئًا غريبًا. لكنني ما أنفك أشعر بأنني مُراقَبة وبالتالي أهرع مبتعدة».

توقفت ناهد لتلتقط أنفاسها فقلت دون تعبير يُذكر:

- ثم؟

تابعت بتوتر وهي تحرك يدها بعصبية:

- «ثم خرج الأمر عن السيطرة..

في محاولة مني لاستعاده تماسُكي بدأت بتجاهل الأصوات التي تهاجمني تمامًا، أقنع نفسي بأنها غير موجودة وسمحت لنفسي بمرافقة والدي إلى عددٍ من الأطباء والدجالين الحمقى، وعلى الرغم من أنني عاودتُ الانغماس في عالم ثاني أكسيد الكربون بين رفيقاتي من السن ذاتها أو أقربائي الأكبر سنًّا، لغير سببٍ سوى تقصير فترة وجودي بمفردي على قدرِ الإمكان، وعلى عكس توقعاتي بدأت بالتحسن.

الأصوات لم تختفِ في البداية. لكنها كانت أضعف، أصبحت تأتي بصورة متقطعة بدلاً من مهاجمتي أربعًا وعشرين ساعة، لكنني احتفظت بخوفي من النظر إلى المرآة إلا نهارًا.

هكذا بدأت مشكلتي تحل نفسَها بنفسها.. أو على الأقل هذا ما ظننته.

حتى جاء اليوم الذي أدركت به أن الأصوات لم تختفِ.. فقط لم تَعُد تقتصر على الوجود بعقلي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حدث ذلك منذ يومين فقط..

اتصال مفاجئ لوالدي دفعه للخروج من المنزل ليلاً ولم تمضِ سوى ساعة أو ما يزيد قليلاً وهاتفنا مبلغًا إيانا بأنه سيبيت خارج المنزل هذه الليلة.. تباعًا أصبح واجبًا عليَّ المبيت مع والدتي بحجرتها.

أنت تعرف أنني كنت أتحاشى هذه الحجرة كالكابوس منذ فترة طويلة؛ لذلك أثار الخبرُ ذعري، حاولتُ التملُّص من المبيت هناك إلا أنني في النهاية استسلمت على مضضٍ مُقنعةً نفسي بأن مواجهة مخاوفي قد تكون خطوةً جيدةً في التخلص مما أنا به، خاصة أنني حسب ما اعتقدت قد بدأت بالشفاء.

هكذا انتهت الليلة، أوى أخي الصغير لفراشه بحجرة مجاورة وتوجهت مع والدتي إلى الحجرة المشئومة متفادية – على قدر المستطاع – النظر نحو المرآة الكبيرة التي احتلت مساحة لا بأس بها من الجدار بجوار الفراش، أيضًا أصررت على النوم بالجهة المجاورة للمرآة لا المقابلة لها كي لا أكون مضطرة إلى مواجهتها في أثناء الليل، لم تُعلِّق أمي، لكنها وافقَتْ.

لم يحدث أيُّ شيءٍ غريبٍ حتى تخطت الساعة منتصف الليل.

المنزل كان هادئًا للغاية، بعض الأصوات المنخفضة من الشارع أسفل المبنى وصوت أنفاس أمي الرتيبة يتردد بالحجرة المظلمة – اللهم إلا من ضوءٍ خافتٍ ينساب من غرفة المعيشة بالخارج.

كنت قد بدأت أستغرق بالنوم بدوري إلى أن ارتفع من جديد الصوت الأنثوي البارد كالفحيح بأذني.

انتفضتَ من مكاني واضطربت ضربات قلبي بعض الشيء، لكنني لم أنهض، فقط شددت قبضتي على الغطاء جاذبة إياه حتى ذقني وأجبرت نفسي على إغماض عيني متجاهلة الصوت، لكنه عاد يرتفع من جديد.

(أريد أن أُسمَع)..

هكذا قالت، الكلمات كانت واضحة وكأن قائلتَها تجلس بجواري، ارتعدت مُردِّدة بعض الأدعية منتظرة أن يختفي الصوت، لكنه عاد يتكرر بإصرارٍ..

(أريد أن أُسمَع)..

فتحت فمي لأوقظ والدتي، لكن لم يخرج من حلقي أيَّ صوتٍ يُذكَر، ازدادت ضربات قلبي سرعة وارتجفت يدي فوق الغطاء محاولة إجبار نفسي على ألا ألتفت، تخيلت ما قد أراه إذا التفت ولم يكن بالشيء البديع بأي حال؛ لذا حاولت إجبار نفسي على الاقتناع بأن هذا وهم، لكن أصوات الحركة الخافتة المقبلة من خلف ظهري جعلتني أوقن تمامًا بأن هناك شيئًا ما سيئًا يقف خلفي في تلك اللحظة.

رغبت بالصراخ أو البكاء، لكنني لسببٍ مجهولٍ لم أتمكن من فعل أيٍّ منهما، بقيت متسمرة مكاني أستمع حتى جاءت اللحظة التي -رغمًا عني- اضطررت فيها للالتفات.

ما رأيته لم يكن ما توقعت، لكن ذلك المشهد كان كفيلاً بدفع جميع شعيرات جسدي إلى الانتصاب ذعرًا..

الظلام بهذه الجهة من الحجرة كان دامسًا، غطى جانب الفراش والجدار إلا من تفاصيل ضئيلة، لكن المرآة جواري تمكنت من عكس الضوء المقبل من الخارج؛ لذا رأيت ما رأيته بوضوح.

ما رأيت لم يكن مقبلاً من جوار الفراش بل من داخل المرآة نفسها..

ما رأيت كان انعكاسي، انعكاسي على الرغم من أنني كنت بعيدةً عن مجال المرآة.

ولذعري لم تكن الفتاة بالمرآة انعكاسًا لي فقط، كانت أنا أجل، لكنها لم تعكس وضعيتي على الإطلاق بل كانت تستند بكلتا يديها -من داخل المرآة- إلى الزجاج البارد، موجهة وجهها نحو الجسد الراقد بالفراش، تنظر إليَّ بعينين متسعتين وفم مغلق عن صيحة مكتومة.

ومن دون تفكيرٍ كثيرٍ علمت أن هذه هي ناهد.

اندلعت صرختي تشق عنان الحجرة، أنظر إلى الفتاة المراقبة لي دون أن أقوى على إدارة وجهي، فقط علت صرختي أكثر حتى كاد حلقي يخرج عبر فمي.

والدتي استيقظت مرتعبة، أخي جاء راكضًا عبر باب الحجرة المفتوح، أضيئت الأنوار بغتة فأغمضت عيني تلقائيًّا وإن لم أتوقف عن الصراخ أو الارتجاف، تساؤلاتٌ كثيرة وأكوابُ ماء وأيدٍ تحيط بي دون أن يتمكن جسدي من الهدوء..

لكنني حين عاودت فتح عيني.. كانت ناهد قد اختفت».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أنهت هند كلامها وأحاطت وجهها بيدها ناظرة نحو الأرض بصمتٍ، كنتُ - أنا - أرتجف رجفة خفيفة حين تخيلت الأحداث التي مرت بها، كحالة مرضية قد يبدو مثل هذا الحكي عاديًّا، لكن المرآة تشكل في نفوس الجميع نوعًا من الخوف غير المبرَّر؛ لذا لم أستطع منع نفسي من التوتر وإن حاولت إخفاءه بحكم طبيعة عملي، ترددت قليلاً ثم قلت:

- ما الذي حدث بعد هذا؟

- لا شيء..

هكذا قالت.. ثم رفعت وجهها من جديدٍ مشمرة عن ساعدها ليظهر الأثر الأسود المقزِّز لحرق قديم، اتسعت عيناي دهشة عندما تبينت آثار الأصابع الغائرة بذراع الفتاة المتآكل ورفعت نظري لأطالع عينيها مباشرة فأومأت بألم، لم أعد أحتمل أكثر، هذه الفتاة إما مجنونة تمامًا، في هذه الحالة يجب تحويلها لمن هو أكبر مني وأقدر على حل مشكلتها، وإما هي صادقة فيما تقول، وفي هذه الحالة تكون الشكلة أكبر.. من جديدٍ حاولت تمالُك نفسي وبدأت بالحديث إليها.

قلت الكثير من الكلمات عن رغبتي في ألا تُشغِل بالها بهذا الموضوع كثيرًا، لا بأس من بعض الأدوية المهدِّئة، ربما كذلك العرض على طبيبٍ آخر، نصائح حول وجوب تخلُّصها من جميع الظنون التي تدور بعقلها، كذبت نظرية وجود ناهد وأرجعتها إلى اضطراب نفسي لدى هند لا أكثر، الخلاصة أنني صنعت المستحيل لإقناع هند بما لست مقتنعًا به أنا نفسي، وفي النهاية انصرفت الفتاة بأمل زائف في الخلاص، وابتسامة مصطنعة مني.

ما إن أغلقَتْ هند الباب خلفها حتى سقطت جميع أقنعة التماسك النفسي التي وضعتها طوال فترة استماعي لها، لم أستطع منع نفسي من التعجب، الدهشة، وظلت كلماتها مسيطرة على عقلي طوال فترة وجودي بالمكتب، خلال الساعات التالية جلست كالصنم أستمع إلى شكاوى تافهة من مرضى آخرين، منتظرًا بفارغ الصبر انتهاء ساعات العمل لأنفرد ببعض المجلدات التي احتفظت بها محاولاً إيجاد تفسيرٍ منطقيٍّ لحالة هند، ومدفوعًا بفضولٍ لا متناهي بقيت جالسًا حتى الساعة العاشرة ليلاً تقريبًا أبحثُ وسط الكتب عن ظاهرة طبية منطقية تجمع بين الفصام والرغبة في إيذاء النفس، كان ذلك التفسير الوحيد لحالة الفتاة على الرغم من أنني لم أكن واثقا كيف أمكنها حرق يدها بتلك الطريقة المريعة، كان هناك تفسير آخر يدور بخجل داخل عقلي، إلا أن عملي كطبيبٍ أجبرني أن أفكر بمنطق طبي لا بمنطق مما يسميه البعض «خزعبلات».

ساعة أخرى مضت قبل أن يقطع خيط أفكاري الرنين المتواصل لهاتف المكتب بجواري، أمر وجدته غريبًا في هذه الساعة؛ لذا رفعت سماعة الهاتف بتوجس لتخترق أذني الصرخات المستغيثة من الجهة الأخرى.. كانت المكالمة من والد هند.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أغلقت باب سيارتي بعنفٍ مُبالَغ فيه؛ وأنا أهرع نحو المبنى القاطن بالظلام يحرسه بواب نوبي بدا مُخدَّرًا وهو ينظر نحوي بشك عندما اندفعت للداخل متخذًا طريقي قفزًا إلى الأعلى حيث تقطن هند،

لم أحتَج للاستفسار عن رقم الشقة؛ فالحشود القلقة المتجمعة حول السلالم كانت دليلاً واضحًا لي، وسرعان ما اخترقت الزحام بعد عناء لأصل إلى باب منزل مفتوح يقف أمامه رجلٌ زائغُ العينين غير مُهندَم، جواره امرأة بدت على وجهها أعتى آيات الفزع نقلت إليَّ شعورًا بالذعر بدوري.

حاولت الاقتراب أكثر، متفاديًا كوع شخص ضخم، وطفلاً فضوليًّا يقف ممسكًا بيد والدته، سيدة كبيرة في السن بدا أنها استيقظت لتوِّها، وعددًا لا ينتهي من أناسٍ لا علاقة لهم بالموضوع إلا أنهم جيرانٍ سمعوا أصواتًا غريبة من داخل منزل الرجل، حقًّا نحن شعبٌ فضولي بشكلٍ لا يُصدَّق، صحت قليلاً مُحاولاً المرور حتى رآني والد هند فأشار بكلمات عصبية أن دعوه يمر وبقي بمكانه محاولاً إيقاف حشد الفضوليين من الولوج إلى داخل المنزل.

بالتالي مررت متسائلاً عما يحدث فأشار لي بالدخول بقلقٍ وتبعتني والدة الفتاة بذعر ظننته مبالغًا فيه إلى أن رأيت الفوضى المريعة داخل المنزل.. عندها أدركت مدى فداحة خطئي.

عندما اتصل بي والد الفتاة مذعورًا ظننت أن ما سأراه هو أثاثٌ مقلوبٌ ربما، أو ملابس ممزقة بعصبية وهند ترقد وسط بركة من الدماء محاولة الانتحار، كان هذا هو السيناريو المتوقع لفتاة تعاني الانفصام، لكن ما رأيته حينها لم يكن بأي حالٍ من الأحوال مرتبطًا بما تخيلته من قريبٍ أو من بعيدٍ.

محاولاً ألا أطأ فوق الزجاج المهشم تقدمت إلى الداخل أكثر وقد بدأت عيني تؤلمني من شدة الإضاءة، ما فهمته من الأم الملتاعة جواري هو أنها غابت عن المنزل قرابة نصف ساعة فقط، نصف ساعة كان كفيلاً بأن يتصل بها عشراتٌ من الجيران المذعورين هاتفين بأن هناك شيئًا ما خطأ يحدث بالمنزل. أتت الأم مسرعة متوقعة حريقًا أو ماسًا كهربيًّا يقضي على ابنتها التي كانت وحدها بالشقة المغلقة، لكن ما وجدته لم يكن ماسًا كهربيًّا.. لم تترك هند مصباحًا بالمنزل إلا وأضاءته، لم تدع جهازًا إلكترونيًّا إلا ورفعت صوته إلى حد الصمم، حتى الموقد، الكشافات الاحتياطية، الألعاب القديمة كانت تعمل بجميع طاقتها.. الأسوأ من ذلك هو أن جميع مرايا المنزل -بلا استثناء- كانت مُحطَّمة إلى آلاف الشظايا الصغيرة وكأنها انفجرت من الداخل لتتناثر أشلاؤها مغطية أرضية المنزل بالكامل، الأكثر سوءًا هو أن الأم جرت صارخة عبر الشقة باحثة برعبٍ عن ابنتها، إلا أن الأخيرة لم يكن لها وجودٌ على الإطلاق.. لم يكن هناك أي أثر لهند.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استمعت إلى القصة دون أن أجرؤ على الحديث أو التعليق، ظلت الأم جواري تتطلع إليَّ وعلى وجهها أعتى آيات الذعر متوقعة أني بطريقة ما سأعيد الفتاة المختفية أو على أقل تقدير سأتفوه بتفسيرٍ ما.. كيف لا وأنا طبيبها النفسي؟

لكنني وقفت بمكاني عاجزًا عن الفهم أو التصرف، بداية حاولت استساغة تفسير منطقي، ثم عبرت المنزل في محاولة فاشلة للبحث عن الفتاة المختفية وسط عويل من والدتها جواري، في النهاية لم أتمكن إلا من الصياح بهما أن يتصلا بالشرطة ويُبلغَا عن فتاتهما المفقودة، كان هذا هو كل ما استطعت فعله في هذه الليلة السوداء، فقط انتظرت مع الوالدين حتى أتت الشرطة مع وعدٍ بالبحث واتخاذ أقوال والكثير من الإجراءات الروتينية الأخرى، ولأنني مجرد طبيب – لم أختطف الفتاة ولم أحرِّضها على الهرب بالطبع – أصبح ملف هند مغلقًا رسميًّا بالنسبة إليَّ.

هكذا كان عليَّ أن أعود إلى عملي المعتاد، كان عليَّ أن أنسى قصة هند وناهد، أن أتخطى مشهد الزجاج والأضواء التي حاولت هند بها حماية نفسها من أصوات ظلت تؤرقها دافعة إياها إلى الجنون. كان عليَّ نسيان كل شيء بخصوص تلك الحالة والعودة إلى حياتي الطبيعية، لكنني للأسف لم أستطع. ولهذا السبب بالتحديد أجلِسُ هنا الآن أمام مرآة حجرتي أنظر إلى انعكاسي المُرهَق منذ نحو ساعتين أحاول تطبيق ما كانت هند تقوم به قبل أن يحدث ما حدثَ...

هناك شيءٌ ما غير منطقي يحيط بهند، شيءٌ ما يحدِّثني بأن اختفاء الفتاة لا علاقة له بحالة جنون أو انفصام دفع بها إلى الهرب كما بدأ الجميع بالظن، لا أدري لماذا حدَّثَني قلبي بأن ما حدثَ لها له علاقة بناهد، ناهد التي بدأتُ أشكُّ بأنها ليست مجرد انعكاسٍ لعقل هند المضطرب. وبطريقة ما أتذكر الآن نصائح أمي عندما كنت طفلاً بألا أنظر إلى انعكاسي بالمرآة كثيرًا.. هند صنعت ناهد.. أجل، لكن وجود ناهد المادي في حياة هند لم يبدأ إلا عندما بدأت الأخيرة باستخدام المرآة كنافذة لتحدِّث رفيقتها المزعومة، هل هذه مصادفة، أم أن هند خدشت حاجزًا ما لم يكن من المفترض أن تتخطاه؟ هذه الأفكار كلها كانت تدور بعقلي منذ لحظاتٍ حتى شعرت بالتعب وكدت أنهض، لكنني رأيت ما جذب انتباهي فجأة...

اقتربت أكثر من المرآة لأرى انعكاسي بوضوح أكبر عندما لمحت شيئًا غريبًا جعل البرودة تزحف بين شعيرات رأسي...

بصوت مكتوم وابتسامة مرقبة تحركت شفتا الوجه الذي طالعني ليردِّد الصوت العميق بأذني:

«أريد أن أُسمَع»..

ابتسم الرجل بارتياحٍ عندما انتهى من الكلام، وكذلك ابتسم الآخر بمواجهته دون أن يجرؤ العجوز بينهما على رفع عينَيه عن الخشب الداكن للمائدة المستطيلة التي يجلس إليها، أدركت الآن لمَ بدا الشاب الذي قابلني في الطابق الأول مألوفًا بشكلٍ غريبٍ عندما رأيت المشهد الذي قابلني الآن من داخل الحجرة.

أمام الباب كنت أقف كتمثال أراقب الرجلين على جانبي المائدة يتوسطهما عم طه بهيئته المتوترة، كان ذلك هو المشهد ذاته الني رأيته يوم دلفت إلى المنزل باحثًا عن العجوز، المشهد ذاته الذي دفعني للعودة إلى هنا ومواجهة ما واجهت، ما اختلف هو أنني هذه المرة كنت أعرف وكنت عاكفًا عن الدخول.

أطبقت فمي وبدأت بالتراجع، رآني عم طه، لكنه لم يرمقني بالنظرة ذاتها التي رأيتها في عينيه سابقًا، بل كان خائفًا فعلاً، تسارع رتم أنفاسي وأنا أبعد خطوات إلى الخلف غير راغب في رؤية المزيد، هكذا اتضح كل شيء أخيرًا، عم طه لم يكن مجرد حارس للمنزل، بل كان يعلم ما يدور بالداخل على الرغم من خوفه منه، وأنا بغبائي قلقت حينما اختفى من كرسيه وقررت اتباعه، غلطة دفعت ثمنها ولا أنوي تكرارها.

متجاهلاً عم طه والشاب الذي كان على وشك الكلام، استدرت كي أعود إلى طريقي، لكن قلبي وثبَ حين فوجئت بمن يستند إلى الحائط جواري ينظر إليَّ بابتسامة صغيرة، كانت الظلال تتلاعب من

خلفه، لكنّ ضوء مصباح عم طه داخل الحجرة ساعدني لأرى ملامحه بوضوح، هو الشاب ذاته الذي قابلته بالحجرة العلوية.

ابتعدت عنه لكن لم يبدُ عليه الاهتمام، بل حرَّك نظره تجاه الآخرين بالداخل ليقول بهدوءٍ:

- لم أرَ هذا الرجل من قبل.

تلقائيًّا نظرت حيث ينظر فوجدتُ أنه يرمق طه، حبست الكلمات بحلقي وأنا أشعر بالتوتر خشيةً أن يراني أحد الجالسين فأتورط بقصة أخرى، لكن الشاب كان يسد الممر الضيق بوقفته هذه فلم أستطع الخروج.

عندها جاءتني فكرة مجنونة بعض الشيء، إن كان طه قد نجح في العبور من خلالي إلى الداخل، أتراني أتمكن من الفعل نفسه كي أصل إلى الخارج؟ ابتلعتُ أنفاسي وأنا أقدِّر المسافة بيني وبين الباب، إن قطعتها ركضًا فلن يتمكن من اللحاق بي، توالت أنفاسي وأنا أقبض يدي استعدادًا بينما هو غير منتبهٍ، ما زال يراقب الرجل بالداخل بدهشة ممزوجة بالفضول؛ لذا وجدت الفرصة سانحة وانطلقت راكضًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل العاشر

صاح الشاب بألم وانتبه الرجال بالداخل فاتجهت أعينهم نحونا حين ارتطمت به لأفقد توازني وأترنح مستندًا إلى الحائط، انتابني الذعر وأنا ألتفت إلى الخلف مستمعًا إلى حركة المقاعد قبل أن يظهر الرجلان من فرجة الباب وهما يرمقان كلينا – أنا والشاب – بدهشة، بدا أنهما لم يستوعبا ما حدثَ بالتحديد، لكن ما حدث بعدها هو أنني رأيت طه يظهر كذلك من خلف الباب لكنه لم يقف ليرمق المشهد كما فعل الآخران بل نكس رأسه بذعر وانطلق عبر أجسادنا بخطوات متعرجة سريعة عبر الممر نحو الخارج.

فعلها مجددًا ولا أعلم كيف، راقبته بذعر وهو يسرع من خطواته محاولاً التنفس لينظر من خلف كتفه إلى المجموعة الواقفة بهلع ويكمل طريقه ليتشبث بمقبض الباب ساحبًا إياه لينفتح وهو يختلس النظرات تجاهنا خوفًا من أنْ يلاحقه أحدُ الواقفين على ما أظن.

لم أتردد هذه المرة، بل انطلقت بدوري وأنا أصيح به أن ينتظرني، من خلفي ارتفع صياح الشاب يحمل نبرةً مُحذِّرةً:

- لا تخرج إلى هناك !!

لم أستمع له ولم أستَدِر كي أرى كيف بدا وجهه، بل ركضت كالملسوع أتعثر وأحاول تمالُك خطواتي خلف طه الذي اختفى عبر الباب الآن، ما إن وصلت إلى الباب حتى استندت إليه ناظرًا خلفي، لكنني لم أجدهم هذه المرة، كان الممر فارغًا تمامًا، عبرت الباب حينها وخرجت تاركًا المنزل المشئوم خلفي.

صفعت الباب لأغلقه في حركة غريزية وأنا أقطع السلالم القصيرة مستندًا إلى طرف الجدار كي لا أسقط نتيجة لتوتري، استطعت أن أرى الأضواء بالشارع، تمكنت أخيرًا من رؤية البوابة الحديدية نصف المفتوحة وظننت أنني لمحت طرف ملابس عم طه يختفي خلف الجدران.

بعقلي نبعَ تساؤل عن الكيفية التي غادر بها عم طه المنزل وهو ميت، لكنني نبذت هذا السؤال لحين أبتعد عن هنا، وبالفعل تحركت من جديد ملتقطًا أنفاسي بصعوبة بالغة، كنت الآن في مواجهة الباب الحديدي يفصل بيننا جزء صغير من الممر المظلم بين المنزل والبيت المجاور، ابتسمت لكن ما إن سمعت صوت الأنين خلفي حتى تلاشت ابتسامتي فورًا.

فحين استدرت دون وعي منِّي رأيته، وعلمت للمرة الأولى كيف يبدو هؤلاء في الظلام..

لا أظن أي تشبيه سيكفي لوصف ذعري في تك اللحظة حين رأيته متكومًا وقد التصق بالجدار جواري، لا أعتقد أنني سأتمكن من تقليد الصرخة التي اندلعت من حلقي حين رأيت عينيه الآدميتين ترتفعان لتحدق بي من بين ما تبقى بوجهه المتآكل من ملامح، لم أركض هربًا هذه المرة على الرغم من أن المسافة بيني وبين الأبواب لم تتعدَّ بضعة أمتار، لاحقًا أدركت سبب عدم قدرتي على الهرب تلك الليلة، لكن ليس في ذلك الوقت.

في ذلك الوقت كان جل ما أدركته هو أن قبضة الألم الرهيبة تعتصر قلبي حتى عجزت عن التنفس السليم، حاولت تجاهل الألم، لكن هذا الرجل - أو الشيء - لم يكتف بالقبوع بين ظلال الجدران منتظرًا، كما فعل سابقوه، بل دون أن أحظى بالوقت الكافي للتصرف كان ينهض معتصرًا ساقي التي كانت أقرب إلى جسده.

انتابني الهلع وانتفضت صارخًا من جديدٍ، لكن لم يتخلَّ عنِّي بل نهض وهو يئن ألمًا مع كل حركة يقوم بها، عاودت الصراخ والاستغاثة لعلَّ أحدًا بالشارع يسمعني، لكن المارة القلائل الذين لاحوا أمام عيني توقفوا فجائيًّا وهم يرمقون المنزل ثم هرعوا للجهة الأخرى مباشرة.

«لاااااا، -صرخت-.. لا تذهبوا، أنا هنا، أنا حيٌّ». أطبق الخوف على صدري وأنا أحاول التحرر حتى سقطت أرضًا، ركلت بعنفٍ وخمشت الأرض أحاول الوقوف من جديد، لكن هذا الشيء بدأ بالزحف فوقي، قابضًا على خصري ثم كتفي وهو يئن بألم، كان ثقل جسده مريعًا وشعرت بالاختناق، سعلت كي أخرج التراب الذي التصق بفمي وصرخت من جديدٍ فشعرت بحنجرتي تتقرح.

استطعت الشعور بأنفاسه المقززة خلف أذني، اشتممت رائحة العفن القذرة الصادرة من جسده المتآكل، واقشعر جسدي حين شعرت بذراعه تعتصر كتفي، ارتفع القيء والغثيان إلى حلقي فاختنقت، لكن هذا أعطاني القوة الكافية لأنفض جسدي مجبرًا إياه على السقوط من فوقي إلى الأرض الترابية المظلمة.

لم أعد أصرخ لأنني لم أجد داخلي القوة الكافية للصراخ، بل انتهزت الفرصة كي أنهض محاولاً التغلب على الألم، لكن اليد الميتة عادت تتنشب بساقي ساحبة إياي إلى الخلف، واندلع الموت المتشقق يُلهِب أعصابي لا بالأنين هذه المرة بل بهمسات متتابعة:

- لم يكن خطئي.. أقسم إنه لم يكن خطئي.

ودون أن يمنحني الفرصة بدأ - بنبرته المشروخة - يحكي آخر قصة سمعتها في هذه الليلة.

الرجل خلف ا لجدار..

«القادم من الأسفل»

«كان معي في الغرفة، كان معي ولا أعرف كيف»..

«التفت نحوي والتقت عيناي بعينيه، تلك النظرة التي لن أنساها ما حييت..».

«أيمن.. هناك شيء ما خطأ».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القبر، الظلام، الصمت..

مصطلحات دارت بذهني بينما أعبر الطريق شِبه المظلم - اللهم إلا من بعض الأضواء البعيدة- ملتفتًا خلفي للمرة العاشرة بقلقٍ، محاولاً الحفاظ -من دون جدوى- على ما تبقى لي من رباطة جأش،

أعرف أن قلقي مبالغَ فيه بعض الشيء، لكن صدِّق أو لا تصدق كانت تلك هي زيارتي الأولى لهذا المكان المقفر.

فور أن انتهى الطريق وبدأت الأحواش الحجرية تلوح أمام عيني توقفت قليلاً ناظرًا حولي ثم عاودت التقدم بصمتٍ، قاطعًا الطريق الترابي نحو الداخل أكثر، بدأت بالنظر إلى المباني الصغيرة لا بفضول لكن بتوجس، أحد أعمدة الإنارة القليلة ساعد في إضاءة المكان قليلاً، لكن الطريق ظلَّ مُحتفظًا بذلك الطابع المهيب المميز للموت.

ظلٌّ صغيرٌ عبر أمامي فأجفلت متراجعًا للخلف، لكنه لم يكن سوى قِطٍّ داكن اللون مشعث توقف ناظرًا إليَّ بفضولٍ ثم تابَع طريقه وكأن شيئًا لم يكن، مُصدِرًا مواء باردًا وهو يختفي بأحد الأركان، صوت سعال أيضًا ظهرَ من خلفي فجائيًّا فالتفت بذعرٍ، لكنه اختفى كما ظهر بلا مبالاة تلته ما بدت كهمسات مقبلة من خلف أحد الأحواش المتناثرة.

على الرغم من أن ضربات قلبي ظلت تقدح بجنون فإنني واصلتُ تقدُّمي غير عَالمٍ أي طريق عليَّ اتخاذه بالضبط، محاولاً إقناع نفسي بأنني كنت أحمق - بل شديد الحمق - لموافقتي على فكرة جنونية كهذه، البرودة المعتادة وجدت طريقها للزحف فوق جسدي، لكنني تجاهلتها متقدمًا يسارًا إلى ما بدا كأنه تفرُّع طريق ترابي آخر أكثر اتساعًا وكُلِّي أملٌ أن يقودني إلى وجهتي كي تنتهي هذه الليلة بسرعة، وبالفعل ما إن خطوت متخطيًا كوة رمادية اللون حتى رأيت الحجرة الصغيرة المضاءة بنهاية الطريق.

مبتسمًا للمرة الأولى هذه الليلة تنهدت براحة وأنا أُسرِع الخطى أكثر.. نحو غرفة اللحاد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نظر الرجل إليَّ بذعر من جديد وهو يحلف -بالطلاق- أن شيئًا مما أقول لم يحدث، بينما أنا أُصِرُّ بغضبٍ مُصطنَعٍ على أن هناك مَن عبث بتربة أسرتي وأنه وغدٌ كاذبٌ وأن أيامًا سوداء طويلة ستكون بانتظاره داخل إحدى الزنازين القذرة بالسجن، وأن تجارة الجثث لا تقل بشاعة عن تجارة المخدرات.

احمرَّ وجه الرجل وبدأت عروقه بالانتفاض وهو يحلف ويقسم بذعر مرة أخرى، لأرفع أنا صوتي أكثر محاولاً دفع اللحاد - كبير السن - إلى الانهيار، مما سيؤدي به إلى تنفيذ طلبي بالتأكيد ودون الكثير من الأسئلة، وبالفعل استمر الوضع المشحون داخل الغرفة لبضع دقائق أخرى والرجل يحاول وأنا أنفي حتى قمت بإلقاء اقتراحي الذي أتيت من أجله أخيرًا:

«فلنفتح التربة ونتأكد»..

قلتها بوجه غاضب وأنا ألوح بيدي، فلم يكن من اللحاد إلا أن صمت ناظرًا إليَّ بتردد، ثم لم يملك إلا أن وافق بعد أن سلمته مفتاح التربة الخاصة بعائلتي متوعدًا إياه بالويل.. تقدمني ضاربًا كفًّا بكفٍّ وهو يتمتم بشيءٍ ما عن المصائب التي تأتي مجتمعة والليلة السوداء، ومن حينٍ إلى آخر ينظر إليَّ بكراهية عميقة ثم يواصل طريقه بين أخاديد القبور المتراصة غير عابئ بالأصوات التي كانت تظهر وتختفي أو الظلال الفضولية التي ظلت تطالعنا فجأة من خلف هذا القبر أو ذاك.

من خلفه كنت أتبع خطواته وقد برمجت وجهي على الاحتفاظ بتعبير الامتعاض كي لا يبدأ الرجل في الشك بنواياي، لكنني على الرغم من ذلك لم أستطع منع التوتر من التسلل إلى نفسي كلما شعرت بالحركة قربنا، أو كلما شعرت بأن النهاية قريبة، بداخلي يتحرك العضو الضامر المسمى الضمير حاثًا إياي على الركض مبتعدًا أو إنهاء الموضوع بأكمله، لكنني كنت – بتردُّد – أزجره بعنفٍ لأقنع نفسي أنني قد تقدمت كثيرًا الآن ولا مجال للتراجع حتى لو أردت ذلك.

«اتفضل يا بيه».. قالها اللحاد بصوته الخشن وهو يتوقف أمام إحدى البوابات الصغيرة المحيطة بمبنى مصفر اللون لينحني مولجًا المفتاح بقفلٍ ضَخمٍ صدئٍ، من فوق رأسه استطعت – بصعوبة – استيضاح لوحة رخامية أظنها تحمل اسمَ عائلتي، التفتّ خلفي بقلقٍ تاركًا الرجل يتقدمني للداخل وهو يشمر عن ساعده المشعر قبل أن يرتفع صرير مريع إثر إزاحته للباب الحجري المغطي لكوة الدفن، بدأ جسدي بالارتجاف عندما تقدمت لأقف جوار الرجل الذي اعتدل نافضًا يديه من التراب..

التفت نحوي والتقت عيناي عينيه، تلك النظرة التي لن أنساها ما حييت

قبل أن تهوي العصا الخشبية الغليظة على مؤخرة رأسه بعنف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ليست فكرتي.. ليس اقتراحي، لكن هذا لا يعفيني من الذنب المريع الذي ارتكبته.

لم يكن اللحاد رجلاً بريئًا أبيض اليدين إلى هذه الدرجة، علاوة على ذلك فإن صيته قد ذاع بين تجار الهيروين وصانعيه، نابشي القبور وسارقيها، طلاب الطب الباحثين عن جثث لتشريحها وطُلَّاب الآثام الباحثين عن موتى لإشباع ساديتهم المريضة على حدٍّ سواء، لكن هذا لم يكن سببًا كافيًا لما أقدمنا على فعله، على الرغم من أنه كان وسيلة قوية حقًّا لإقناعي بأن أخطو فوق ضميري مقدمًا على تجربة لن تخسر فيها البشرية سوى رجلٍ واحدٍ من بين 85 مليون شخص.

مبرر أحمق، لكنه استدرجني كي أشارك صديقي المقرَّب ياسر في هذه التجربة التي لا أعلم إلى أين ستودي بنا، لكن نهاية المطاف لن تكون جيدة بأي حالٍ من الأحوال، كنت أفكر في هذا بينما أراقب بشرودٍ ياسر الغارق في العرق والتراب وهو يجر الرجل – فاقدًا الوعي – جرًّا إلى داخل الفجوة المظلمة بالأسفل، كان يتنفس بصعوبة وهو يجاهد كي لا يسقط منكفئًا داخل الكوة الباردة، لكنني لم أجد بنفسي الشجاعة الكافية لمساعدته.

تسمرت مكاني ناظرًا حولي من حينٍ لآخر، وقد أضفى التوتر نوعًا من الوساوس على عقلي لأشعر بعشرات الأعين تراقبني ومئات الأصوات تهمس من خلف ظهري، أنا مذنبٌ، مذنبٌ، وسيأتي العقاب في أية لحظة الآن في شكل دورية شرطة أو لصٍّ أو أي ما كان لألقى نهاية بشعة أنا والأحمق المختفي داخل القبر، سأقضي بقية حياتي بالسجن، هذا إن لم يتم إعدامي شنقًا، سأنتهي بسبب فكرة غبية، تبًّا لك يا ياسر..

قطع حبل أفكاري صوتُ زميلي يسعل محاولاً انتزاع هذا الكم من التراب من قصبته الهوائية، بصعوبة انتزعت نفسي من وساوسي والتفت نحوه لأقترب أكثر.

كان ضوءُ المصابيح الواضح الآن ينعكس من داخل القبر صانعًا مَزيجًا مرعبًا من الظلال فوق الجدران الباردة فأدركت أن ياسر قد انتهى من الجزء الأول من خطته.

حاولت ضبط أنفاسي وأنا أتقدَّم لأساعده على إغلاق الكوة، وإزالة أي أثرٍ يدل على أننا وُجِدنا هنا، ثم انطلقنا نحو الخارج متفادين النظر إلى بعضنا البعض.. تاركين خلفنا بابًا حديديًّا مُغلَقًا بإحكام..

وجسدًا فاقد الوعي داخل تربة مغلقة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أغمضت عيني تاركا الماء البارد يغرق رأسي، فلربما يخلصني من الذنب العالق بذهني كما خلصني من ذرات التراب والعرق المتراكمة فوق خصلات شعري، على الرغم من أنني شاركت ياسر في تجربته المجنونة تلك فإنني الآن وقد انتهى الجزء الأول منها بدأت أشعر بفداحة الخطأ الذي ارتكبناه ، فبأي حقٍّ نسجن رجلاً حيًّا داخل قبرٍ لمجرد صنع محاولة ما لتسجيل ما يحدث بالقبر بالصوت والصورة؟!

«لأنها طريقتنا الوحيدة للمعرفة بما أن من كُتِبَ عليه مواجهة التجربة لن يعود ليحكيها».. كان هذا مُبرِّر ياسر، هكذا أقنع نفسه وهكذا دفعني لأصمت وقتها، وإن ظل هو معدوم الشعور بالذنب حتى الآن بينما أنا بدأتْ جميعُ المخاوف والمشاعر الكئيبة تنهش عقلي، الإحساس بالذنب قاتلٌ، خاصةً أنك تعلم ألا وسيلة لإصلاحه، لقد عبرت إلى الجانب الآخر بالفعل، أنت الآن قاتل أو تكاد تكون.

حاولت نفض تلك الأفكار عن عقلي عندما سمعت صوتَ ياسر العميق يصيح باسمي من الخارج، رفعت رأسي نافضًا الماء العالق بشعري ثم جففت وجهي الذي لم يفارقه تعبير الكآبة بعد.. وخرجت.

كنا في شقة ياسر الصغيرة التي نادرًا ما تستعملها عائلتُه والتي اتخذها هو وكرًا للدراسة أحيانًا أو للاجتماع مع «الشلة» في أوقات فراغنا، أمام مكتب الكمبيوتر الخشبي الصغير - الذي كان يومًا منضدة - جلس ياسر شاخصَ العينين وهو يراقب الشاشة البراقة أمامه وفوق زجاج عويناته انعكست أضواء رمادية وخضراء يمكنني - من دون جهدٍ - أن أدرك أنها مشهد الرجل الراقد داخل القبر.

الشاشة كانت متصلة لا سلكيًّا بالكاميرا الصغيرة النى زرعناها بالقبر قبل أن نقوم بوضع الرجل بداخله، منذ ساعاتٍ عُدنا إلى المنزل لاهثي الأنفاس لأسقط أنا قُربَ الباب محاولاً استيعاب ما قد حدثَ بينما يهرع ياسر إلى شاشة الكمبيوتر ليقوم بعملية ما معقدة متعلقة بإيصال الجهاز بالكاميرا وما شابه، بدا على وجهه تعبير نَهِمٌ حينها وهو يضغط الأزرار بجنون حتى صاح بظفر في النهاية عندما ظهر الكادر الضئيل وبمنتصفه الرجل كبير السن مُلقى أرضًا وقد التف جلبابه القذر حول جسده بطريقة مثيرة للرثاء.

منذ تلك اللحظة حتى الآن وياسر جالس أمام الشاشة يراقب كالصقر دون أن يعيرني أي انتباه؛ لذا لم يكن المشهد الذي رأيت عند خروجي من الحمام غريبًا.. الغريب حقًّا هو تعبيرات وجهه عندما رفع نظره إليَّ ليقول بصوت متحشرج:

- أيمن.. هناك شيء ما خطأ.. ولم أكَد أفتح فمي حتى انقطعت الأضواء عن الشقة بالكامل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- ياسر..

لا إجابة..

- ياسر..

لا إجابة من جديد. ترنحت بمكاني مادًا يدي تلقائيًا إلى الجدار جواري واتسعت عيناي محاولاً الحصول على أي رؤية، لكن الظلام كان مُطْبِقًا، ولدهشتي كان الصمت مُطبِقًا أيضًا، بسِّري لعنت ياسر، وشركة الكهرباء، ثم لعنت اليوم الأسود الذي وافقت فيه على خوض تجربة مثل هذه، استبد بي الغضب وقد بدأت بالتحرك قليلاً عاجزًا عن الرؤية أو عن تحديد اتجاهي حتى، عندما تنقطع الكهرباء بمنزلي سرعان ما أتمكن من النهوض فالمشي الحذر فإيجاد شيء ما لإضاءة المكان، أُلفة المكان تساعد، لكن هنا شعرت بأن الظلام يجردني من القدرة على التفكير السليم، وللمرة الثالثة ناديت ياسر بحنق.

هذه المرة أتى الرد في صوت حشرجة غريبة.

توقفت عن الحركة لأصغي السمع وكدت أنادي مرة رابعة، لكن ارتفاع الصوت أجبرني على الصمت، شيئًا فشيئًا بدأتْ مشاعر الحنق تخبو لتحل محلها الدهشة عندما ارتفع صوت خبطة ما وكرسي يسقط ثم شهيق مختنق وأصوات أقدام متعثرة ترتطم بشيءٍ ما، بعدها احتل الصمت الغرفة من جديد وبالطبع لا أحتاج للقول إنني تسمرت مكاني عاجزًا عن الفهم أو الحركة.

تك.. تك.. تك.. تك..

دقات الساعة الرتيبة فوق الجدار تجعل هذا الصمت لا يحتمل..

تك.. تك.. تك.. تك..

ترددت قليلا قبل أن أفتح فمي مرة أخرى ليأتي صوتي المختنق مناديًا على ياسر، لكن ما كدت أنتهي من الجملة حتى انطلقت تلك الصرخة الملتاعة، تلتها خطوات راكضة.. وقبل أن أجد لدي القوة الكافية للاستيعاب صدمني جسدٌ راكضٌ لأفقد توازني مُصدِرا صيحة اعتراضية ذابت وسط الفراغ عندما سقطت وهوى هو فوقي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ضربتي الألم كعاصفة رعدية عندما ارتطم رأسي بالأرضية الصلبة، لم أكن أرى لكنني شعرت بومضات الألم تحوم حول عينيَّ وارتفع الطنين بأذني للحظاتٍ، فقدت الشعور لوهلة ثم عاودت إدراك أن جسد ياسر ما زال ساقطًا فوقي؛ لذا دفعته عني بألم وأطلقت سبة وأنا أحاول النهوض، لكن الأخير – لدهشتي – لم يُبدِ أيَّ رد فعلٍ، بل انزاح ليسقط جِواري كجوال مصمت دون أن يتحرك مقاومًا أو متألما حتى.

بصوتٍ ضَعيفٍ نهرته وقد بدأت أشعر بالاتزان مرة أخرى وإن ظلت مؤخرة رأسي المتورمة تنبض بعنفٍ، لكنه لم يحب، بل لم يصدر عنه أيُّ صوتٍ من الأساس، عندها بدأت أشعر بالقلق.

- ياسر..

قلتها بتوتر وحرَّكْتُ يدي وسط الظلام متحسِّسًا جسده المتكوم جواري، كان منثنيًا حول نفسِه في وضع السقوط، لكنني استطعت الإمساك بذراعه وبالتالي قلبته نحوي بتوتر، هل فقدَ الوعي إثر الارتطام؟ استندت بيدي إلى صدره وأنا أحثه على النهوض من جديد. كانت ذراعه باردة متصلبة كالصخر.

لم يستجب لي، فحاولت بعنفٍ أكثر إفاقته دون جدوى، عندها بدأ شعورٌ جديدٌ يدب بأوصالي وخرج ندائي لا بصيغة الغضب أو القلق.. بل الخوف.

استندت إلى ركبتي قابعًا دون حراك لبرهة..

هناك شيء ما خطأ..

اضطربت ضربات قلبي قليلاً، كنت لا أزال ممسكًا بذراع ياسر؛ لذا اقتربت بعد تردُّد مادا ذراعي على غير هدى كي أحاول الوصول إلى وجهه، قبضَتْ يدي على خصلات شعره المبعثرة هابطة نحو الأسفل، ارتجفت بذعر عندما واجهت ذلك الملمس اللزج للعينين المفتوحتين. لكن أصابعي الباردة تحركت عبر وجهه متخطية خطوط وجنتيه التي بدت مشدودة لأعلى بقوة مُبالَغ فيها، وما إن وصلت لنهاية وجهه حتى صدرت عني شهقة مكتومة وأنا أنتفض للخلف بذعر كمن أوصل ذراعه بقابس كهربي.

ففكَّا ياسر لم يكونا مفتوحين على اتساعهما فقط.. بل محشوين تمامًا بالتراب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم أتمكن من الصياح.. لسببٍ ما لم أتمكن من الصياح، لكنني زحفتُ مذعورًا أبعد ما يمكن عن ياسر، وقد أفقدني ما حدث أيَّ قدرةٍ على التحكم بأعصابي، ظلَّ جسدي ينتفض برعبٍ ووقفت بصعوبة، لكنني لم أستطع الاحتمال أكثر وأفرغت معدتي.

ماذا حدث له؟ بطريقة ما حاولت ألا أربط بين ما حدث وما فعلناه سابقًا هذه الليلة، ربما لأن أشياء كهذه لا تحدث في الواقع، أو على الأقل لم يستطع عقلي استيعاب أنها من الممكن أن تحدث، حتى لو حدثت من المستبعد أن تحدث لي، لماذا؟ لأننا بمصر.. لأن هذا ليس واقعًا.. لأنني لم أسمع به قبلاً.. لأن... لأن...

توقف عقلي عن التفكير وقد أدرك مدى غباء المبررات التي وضعها، ما وقع لغيرك يمكنه أن يطولك أنت أيضًا إذا وُجِدَت الظروف المناسبة لذلك، لا قواعد هناك، لا قواعد في الموت، خاصة أن أصابعك بدأت بالعبث في أشياء كان من المفترض ألا تعبث بها؛ لذا توالت أنفاسي بهلعٍ وقد تغلب عليّ الرعب البدائي التقليدي، لا أريد تفسيرًا.. عليَّ أن أهرب.

لم تكن أحماض معدتي قد هدأت بعد عندما عاودتُ تحسُّس طريقي باحثًا عن الباب، بل كانت تنهش أحشائي بعنفٍ، وأصبح التقاطُ أنفاسي أمرًا عسيرًا، توترت حركتي وقد خفت أن أتحرك بالجهة

الخطأ فأصطدم بياسر من جديدٍ. الظلام أفقدني حس الاتجاهات وتعثرت أكثر من مرة بأكثر من قطعة أثاث لأسقط مرتعدًا كفأرٍ وأحاول النهوض من جديد.

تك.. تك.. تك.. تك..

ضربات الساعة تلسع الخيوط الباقية من عقلانيتي، رغبت بالصراخ فيها أن تصمت، لكن الصوت الرتيب استمر وسط الظلام.

تك.. تك.. تك.. تك..

العرق المالح يتسرب إلى عيني فيزيد الأمر سوءًا وضربات قلبي تختلط بدقات الساعة تلك، تبًّا أين طريق الخروج؟!

تك.. تتتت...

توقفت دقات العقارب.

لوكنت في ظروف أخرى لم أكن لألاحظ، لكن ولأنها الصوت الوحيد حولي بدا صمتها مفاجئًا إلى حدٍّ مُريع، حاولتُ منع نفسي من التوقف بدوري، لكن الصوت الذي أتى من الجهة الأخرى من الحجرة أجبرني على التسمر مكاني.

ذلك السعال الخشن.. أعرف هذا الصوت جيدًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«التفت نحوي والتقت عيناي عينيه، تلك النظرة التي لن أنساها ما حييت.. قبل أن تهوي العصا الخشبية الغليظة على مؤخرة رأسه بعنف»..

«أيمن.. هناك شيءٌ ما خطأ».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان معي في الغرفة، كان معي ولا أعرف كيف..

التفت جواري، التفت خلفي، شخصت النظر أمامي، لا أرى، لا أستطيع الرؤية، أين هو؟! كيف؟! الظلام!! تبًّا للظلام.

تعالت أنفاسي متحولة إلى زفير متتابع، كنت أرتجف، أرتجف وأتصبب عرقًا، ترتج قدماي لأفقد توازني دون أن أجد حولي ما أستند إليه، السعال الخشن يرتفع من جديدٍ، أحاول تحديد جهته، لكنه بدا آتيًا من كل مكانٍ، تحامَلتُ على نفسي وركضت، ركضت على غيرِ هدى غير عابئ بما أتعثر به، ارتطمت بجدار لِيرتج رأسي ألمًا، أشعر بخيط من الدماء يسيل فوق شَفتي، لم أهتم، ركضت من جديد للجهة القابلة، لا أرى.. لا أستطيع الرؤية.

خشخشة الجلباب ورائحة التراب هذه، هذا لا يمكن أن يحدث، هذا لا يحدث في الواقع.

صحت.. صرخت.. ركضت.. سقطت.. نهضت.. سقطت مرة أخرى..

فقدتَ الشعور بنفسي، لا أستطيع الشعور بساقي، الألم الحارق يعتصر صدري كمن ظل يركض أميالاً، رائحة العَرَق القذرة المختلطة بالتراب أفعمت أنفي عندما انغلقت القبضة الخشنة فوت ذراعي كالكلابات..

«اتفضل يا بيه»..

قالها الصوت العميق ذو النبرة المتحشرجة..

قالها وقد كانت آخر ما سمعت...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«أيمن.. هناك شيء ما خطأ»..

«ليست فكرتي.. ليس اقتراحي، لكن هذا لا يعفيني من الذنب المريع الذي ارتكبته».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أول ما أدركته هو أنني ما زلت حيًّا..

الألم المريع يقيد جسدِي بالكامل، لم أقوَ على فتح عيني بَعدُ، لكنني كنت حيًّا، كنت أتنفس بصعوبة، لكنني كنت أتنفس، لم أَمُت ولا أعرف كيف.

ثم ما لبثت أن أدركت أنني أشعر بالبرد. هناك شيءٌ ما يحيط بي، شيءٌ ذو ملمس خشن يلتصق بجسدي باعثًا فيَّ القشعريرة، لكنه لا يقيدني، كنت حُرَّ الحركة على الرغم من كل شيء.

وسط الضباب الذي غلَّف ذهني نجحت في استعادة ذكرى مشوشة لما حدثَ، لكنني كلما نجحت في استيضاحها أكثر بدت لي غير واقعية، تحركت قليلاً غير مُصدِّقٍ تمامًا أنني ما زلتُ حيًّا، ربما كان ما حدث حُلمًا، بدأت خيوط ضعيفة من الأمل بالتسلل إلى قلبي، لكن ما إن حاولتُ التنفس بجدية حتى تبددت تلك الخيوط كالدخان.

لسببٍ ما أبى الهواء عبور أنفي، شعرت بالاختناق حاولت فتح فمي الذي تراكمت فوقه القشور، بالفعل يتسلل الهواء إلى رئتي، لكن ذلك لم يُساعِد إلا في شعوري بالاختناق، وبالتالي مَددتُ يدي نحو وجهي بصعوبة لأشعر بأصابعي الباردة بينما تقبض على هذا الشيء الذي يمد فتحتي أنفي مانعًا إياي من التنفس، لم أحتَج إلى الرؤية كي أدرك أن هذا الملمس الزغبي بيدي كان.. قطنًا.

كانت لحظات فقط هي تلك التي قضاها عقلي دون قدرة على الاستيعاب؛ لأنني سرعان ما كنت أنتفض ذعرًا.

وسط ضربات قلبي المتسارعة والرائحة العطنة التي هاجمت أنفي مددت ذراعًا متيبسة نحو أذني وقد بدأت بالفهم، شعرت بالملمس الزغبي من جديد.. قطن، قطن بأنفي، قطن بأنني!

حاولت – بألم – تحريك جسدي وقد بدأت بالهلع فقط لأدرك سبب شعور البرودة هذا، أنا عارٍ تمامًا.

رباه.. لا تجعل فهمي صحيحًا..

فتحت عيني على اتساعهما، لم أرَ أي شيء، ما زال الظلام يغلف الموجودات، لكنه كان ظلامًا مختلفًا، ظلامًا باردًا، ظلامًا ذا صدى لو كان لهذا المسمى وجود.

تردد صوت أنفاسي بالمكان وأنا أنحني متحسسًا الأرض حولي، تراب جاف علق بين أصابع يدي، دون قصدٍ احتكت يدي بثنية طولية من القماش، لم أكن أرى، لكنني - لرعبي - أدركت معنى هذا الذي يحدث الآن، واصلتُ يدي الحركة هنا وهناك عبثًا وأنا أنحني وقلبي يكاد يتوقف، عندها اصطدمت بملمس أكثر ليونة جواري.. ملمس جسد.

***

«التفت نحوي والتقت عيناي عينيه تلك النظرة التي لن أنساها ما حييت.. قبل أن تهوي العصا الخشبية الغليظة على مؤخرة رأسه بعنفٍ»..

«ليست فكرتي.. ليس اقتراحي، لكن هذا لا يعفيني من الذنب المريع الذي ارتكبته».

«لأنها طريقتنا الوحيدة للمعرفة بما أن مَن كُتِب عليه مواجهة التجربة لن يعود ليحكيها»..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قطن.. ظلام.. تراب.. جسد..

فقط في هذه اللحظة شُل عقلي تماما لتندلع أكبر صرخة أطلقتها منذ ولدت...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الخاتمة

كانت تلك هي النهاية..

لا لأنه انتهى من سرد قصته وتخلى عني سامحًا لي بالذهاب، لكن لأنني لم أعد أعي ما يدور حولي كثيرًا، اشتدت قوة القبضة العاصرة مجبرة قلبي على النبض بقوة لم أعهدها قبلاً، أصبح التنفس ليس عسيرًا بل مستحيلاً، بداية ظننت الجسد الميت يقبض على كتفي، لكنني حين شعرت به يبتعد لينزوي بأحد الأركان من جديدٍ أدركت الحقيقة.

حاولت أن أنهض، لكن الأمر كان أصعب مما توقعت، جل ما نجحت به هو الانقلاب على جانبي وأنا ألهث، كان الصداع يمزق رأسي، وشعرت بخيطٍ من الدماء ينبثق على استحياء من أنفي ليتلوى متجهًا إلى التراب البارد أسفل رأسي.

أنا أموت، علمت هذا وعجزت عن تصديقه في البداية، لكن لم يعد هناك مجالٌ للنكران، كان الذعر الخالص قد تملَّك منِّي هذه اللحظات، لكن - للسخرية - لم أكن أشعر بالذعر من الموت، بل من الموت في هذا المكان بالذات.

اغتصبت شهيقًا صغيرًا وقد بدأت في محاولة مزرية للزحف كي أصل للخارج. لم أرغب بالموت هنا، كلما تذكرت هؤلاء بالأعلى حاولت التشبث بالحياة فقط كي أصل للخارج، رجوت بسرِّي وتوسلت، لا أريد الموت هنا، لا أريد أن أصبح أحدهم، لا أريد دفع الموت عنِّي، فقط أموت بالخارج، رجاء..

أريد الموت بالخارج.

الطنين نالَ من أذني فأغلقت عيني بألم، لكنني واصلتُ الزَّحف، لمسَتْ أصابعي الواهنة الحديد البارد للبوابة، لكنني توقفت حين اخترق الطنين بأذني خطوات الأقدام المسرعة التي ضربت الأرض أمامي، بصعوبة فتحت عيني لأرى من بين النقاط المشوشة عددًا من الرجال يعبرون البوابة الحديدية متجهين للداخل والتجهم يبدو على وجوههم، دون تفكير كثير تذكرت المحادثة التي أجريتها بأعلى، النجدة وصلت بالفعل، لكنها جاءت متأخرة للغاية.

توقفت عن الحراك بوهنٍ أحدق بالفراغ بعين شبه عمياء وأنا أنتظر سماع الصيحات المذعورة، تشبثت لآخر أنفاسي أنتظر أن أشعر بيدِ أحدهم تجرني للخارج، لكن انتظاري ذهب سدى، النجدة لم تأتِ، عجزت عن رؤيتهم بوضوح، لكنني وسط الأضواء الضعيفة أدركت أنهم تخطوني باحثين بالمدخل.. عندها فهمت، عندها فقط أدركت ما كان يعنيه الشاب بالحجرة.

«محمود!! أنت سمعت هذه القصة من قبل!!»..

أدركت كيف سمعتها من قبل، لكن يصعب القول إن الرعب هو ما تمكَّن منِّي حينها، لم أحظَ بالوقت الكافي للرعب؛ لأنني في اللحظة التالية فقط كنت ألفظ أنفاسي الأخيرة وقد ذهبت محاولاتي سُدى، الشيء الوحيد الذي تمكنت من إخراجه من المنزل هو رأسي وذراعي الدامية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أرجعت رأسي للوراء وأنا أنظر لسماء الليل الخاوية من الغيوم، ما زال الصخب يملأ الشارع على الرغم من أن الوقت قارب منتصف الليل.

كلما تذكرت الليلة التي وقعت بها تلك الأحداث اقشعر بدني، الآن فقط أستطيع أن أرى خيوطَ القصة كاملة، كيف أتيت إلى هنا لأجلس مرافقًا لعم طه الذي كان بريئًا تمامًا من أفكاري السوداء، الرجل العجوز - حارس المنزل - دفعه الفضول لاكتشاف ما بالداخل أحد الأيام، كان ليلاقي مصيرًا مريعًا لولا أنني كنتُ بالداخل بالفعل.

للأسف هناك خدعة صغيرة غير عادلة هي أن عقلك حتى بعد أن تموت لا يتذكر إلا ما كنت مؤمنًا بأنه الواقع حين كنت على قيد الحياة، حتى لو كان هذا الواقع هو مجرد فكرة من صنع عقلك نتيجة لصدمة تعرضت لها.

أنا لم أدخل تلك الليلة إلى المنزل بحثًا عن عم طه، بل هو من أتى بحثًا عني، تلك الليلة دخلت إلى المنزل بدافع الفضول حبين رأيت حارس البيت غائبًا، توغلت بالبيت وصعدت الأدوار ورأيت ما رأيت، وحين عدت إلى الأسفل كان عم طه قد دخل إلى المنزل بحثًا عني حين قابل الرجلين.

لا بُدَّ أنه كان قد اكتشف حقيقة ما يدور بالمنزل حينها كي يتركني هكذا ويهرب ظنًا منه أني واحد منهم، لا ألومه كثيرًا الآن، يصعب أن تشعر بالكراهية حين تكون ميتًا، حاولت الهرب بدوري ذلك اليوم، لكنني سقطت ضحية للسكتة القلبية، كان أنا من وجدوا جسده أمام المنزل في اليوم التالي، والعزاء الذي حضرته لا بُدَّ أنه كان عزائي أنا.

كنت أجلس بالسُّرادق أنعي جسدي أنا دون أن أدري، ظننت أنه طه، عقلي اختلق ذلك نتيجة للصدمة، لم أكن أتذكَّر أيًّا مما حدث؛ لذا عدت مرة أخرى للمنزل، هذه المرة عدت ميتًا.

لهذا بدَت الكثير من الأشياء غير منطقية؛ لهذا لم يرني رجالُ النجدة، ولهذا أخبرني الفتى أنني سمعت هذه القصة من قبل، هو كان يعلم الحقيقة، لكنه لم يصارحني فقط، سواء كان هذا بإرادته أو كان قدري.

كنت أكرر ما حدثَ بالطابق الثاني تمامًا، أنساق لقدري دون إدراكٍ منِّي، أكرر ظروف موتي مرارًا دون أن أتذكَّر بكل مرة جديدة أن هناك مرة سابقة.

لا يمكنك الهرب من القدر، حتى الموت لا يعني دائمًا الخلاص، بل هو شيءٌ أشبه بإخلاء سبيل مشروط»..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سوزان، جودي، وسارة.. أيمن والشباب الآخرون.. وأنا..

نحن سكان هذا المنزل، قصصنا هي ما ستسمعه إن دفعك الفضول لاكتشاف ما يدور خلف أبواب الشقق المغلقة داخل البيت القديم بنهاية الشارع.

بعضُنا وجوده هنا مرتبط بموته داخل جدران المنزل – مثلي – البعض الآخر مات بالقرب من هنا – مثل سوزان – التي علمت فيما بعد أن حياتها انتهت قُربَ القسم القديم بنهاية الشارع، بينما البعض الآخر لا أعلم كيف جاءوا؛ لذا لا تتساءل كيف اجتمعنا هنا؛ لأنني سأجيبك بأنني لا أعرف، ليست جميع قوانين عالم الموتى معروفةً على أي حال.

أطلت أبناء شارعي على طه يومًا «حارس منزل العفاريت»، كنت أسخر منهم لأنني لم أكن أصدق في مثل هذه الأمور، اكتشفت الآن أن كونك لا تصدق أمرًا لا يجعله غير موجود.

هو موجود لكنك لا تراه؛ لذا فمن الأفضل أن تصدق كي لا يأتي اليوم الذي تكتشف فيه الحقيقة بالطريقة السيئة؛ لأنك حينها لن تتمكن من العودة ولن تسنح لك الفرصة للندم.

على كل حالٍ ثلاثة أيام هي كل ما تبقى حتى انتهاء رمضان، الشهر الوحيد الذي يعد – بالنسبة لنا – وقتًا مستقطعًا، بعض سكان المنزل سيرحلون إلى الأبد مع نهاية الشهر والبعض الآخر سيأتي بالتأكيد، هكذا كان الحال دومًا.

أنا فقط من سيبقى هنا لأنني الوحيد بينهم الذي مات هنا.

حين ينتهي الشهر لن أتذكر أنني متُّ، سأعود إلى حلقة التكرار من جديد؛ لذا على الأرجح أنا لن أتذكر حتى أنني حكيت هذه الحكاية.

لكن رجاء.. تذكَّرها أنت، لا تحسبها تخاريف عجائز.

لأن الرجل الذي قال لي يومًا: «إن تخاريف العجائز ما هي إلا حديث الشباب، فارق السن هو ما جعل عقلك يصدق أو يأبى التصديق»، لم يكن يعلم أن اليوم سيأتي لأقول إن ما يرويه الموتى ما هو إلا واقع عاشوه حين كانوا أحياء..

فقط عقلك يأبى التصديق..

لأنكم أحياء.. ولأننا موتى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..